الفصل الأول

صورة المرأة في الشعر

المبحث الأول : صَوُرة الأم.

المبحث الثاني : صورة الأخت.

المبحث الثالث : صورة الزَوجة.

المبحث الرابع : صورة الإبنة.

المبحث الخامس: صورة الحبيبة.

المبحث السادس: صورة الجارية .

المبحث الأول

صـــــورة الأُمّ

لقد كَرمت الشرائعُ السماوية المرأةَ علاوةً على القوانين الأرضية، ونجدُ البيان القرآني قَدم لنا المرأةَ الأم في صورةٍ كريمة، حبذا لو اتعظت بها كلُّ الأمهات، فقصَّ علينا القرآن الكريم من ماضي التأريخ الديني للبشريّة قِصَصاً تؤكد ... أنَّ المرأةَ هي التي إنفردت بتربية الأبناء[1]. واستمدت من اللّغةالعربية معنى الأصالة والعموم والأهمية البالغة، ذلك لـ(أنَّ أمَّ كلِّ شيءٍ أَصلُهُ) [2]. واكتسبت من أي الذكر الحكيم مدلول : القدسية والطهارة والنبل. (وكانت العرب تسمي الأرض أمّا، لأنها مبتدأ الخلق، وإليها مرجعهم، ومنها أقواتهم، وفيها كفايتهم) [3]. ويبدو أن المشابهةَ بين الأرض والمرأة قديمةٌ قِدم الحياة[4].

ولا ننسى أنّ المرأةَ في طَورٍ أولٍ من تاريخها عُدّتْ في المقام الأول أمّاً. يومئذ كانت الوالدة تحاط بضروب الإحترام والتكريم كأم. وأن رسوم العصر الحجري القديم سواء كانت منتقوشة أم مرسومة أم منحوته كانت تمثل الوالدة- Genitrix- والأمّ واهبة الحياة كانت بالنسبة للرجل قبل كل شيء أمّاً. لذا فإن الإحترام الذي يكنه الرجل للمرأة يبدو موجهاً إلى الأم أكثر منه إلى الزوجة[5] . قال

---

(1) امرأة عمران: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ". وأمُّ إسماعيل الأمّةَ المنبوذةَ " رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ " وأم موسى هي التي أوحى إليها فأنقذته من المذبحة لقوله تعالى " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي ".

(2) أبو منصور التعالبي: ثمارَ القلوب في المضاف والمنسوب: م١ ص٢٠٣ مطبعة الظاهر سنة ١٩٠٨.

(3) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن : ص١٠٤ شرح ونشر السيد أحمدُ صقر/ ط٢/ ١٩٧٣ دار التراث.

(4) مونيكبيتر : المرأة عبر التاريخ : ص١١ ترجمة هنريت عبودي. دار الطليعة. بيروت - الطبعة الأولى - ١٩٧٩.

(5) المصدر نفسه : ص٥- ٧ - ١٠ - ٧٩ .

تعالى ((وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)) [1].

فالآيةُ خَصتُ الأم بالذكر وأشادَتْ بتضحياتها في حمل الولد ورضاعته سنتين متواليتين من السهر والعذاب ... وكان يقال عند الاستخبار عن ولادة إمرأة: (أحلبت ناقتك أم أجلبت؟ أي أولدت أنثى تحلب أم ذكراً يجلب للبيع)[2] وكما حظيت الأمّ بتكريم القرآن حظيت بتكريم الإنجيل ، فنلاحظ (أوله باسم الأب والأم والابن) [3] والمراد بالأب هو اسم الله. وبالأم كنه الذات المعبر عنها بماهية الحقائق وبالإبن هو الوجود المطلق لأنه فرعَ ونتيجة عن ماهية الكنه[4].

ولقد ضمَّ المجتمع الأندلسي كثيراً من الأمهات المسيحيات، وأكثرهن بقين على دينهن، لم يغير من طابع سعادة بيوتهن إختلاف العقيدة بين الزوج وزوجته أو

---

(1) سورة لقمان : الآية ١٤.

(2) الزمخشري : ربيع الأبرار: جـ٤ ص٢٨٩. تحقيقد. سليم النعيمي – مطبعة العاني.

* الأُمّ : بمعنى الجلدة الرقيقة على الدماغ معرّب اليونانية (الاميس) Eilamis عربّها العزب أولاً . أنظر انستانس الكرملي : المساعد سلسلة المعاجم والفهارس: جـ٢ ص٣٧. دار الحرية للطباعة ١٩٧٦،بغداد. تحقيق كوركيس عواد.

(3) أنظرحسين بن محمد بن الحسن الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: جـ١ ص٨ – مؤسسة شعبان – بيروت.

(4) المصدر نفسه : والصفحة نفسها.

والمعروف عن المسيحيين "باسم الأب – والابن – وروح القدس". انظرجبران سعود : الرائد : ص١٨ ط١ بيروت – ١٩٦٤.

الولد وأمه[1]. ومنهنّ على سبيل المثال والدة عبد الرحمن الناصر(مارية) من سبي الفرنجة وهي مسيحية وتسميها الرواية العربية (مزنة) [2].

ومن ثُمّ فَمَنْ يستطيع أن يُعطي لوحةً كاملةً عما تدّين به البشريةُ لهؤلاء اللواتي أنجبن في الآلام والآلاف والآلاف من الأجيال البشرية[3].

ربما استطاع الشاعرُ أن يرسَم صورةَ فيض الحنانِ والعنايةِ الذي حَظِيَتْ به هذه المخلوقات الطريّة العود ... فلننظرصورة تلك الأمّ.

"الأُمّ في الشعر"

ولما كان الشعر له صلة بالشعوروعَلاقة بالطبعِ واختلافِ الظروف، لذا بدت صورة الأمِ في شعرِ الأندلس متباينة السمات، مختلفة الملامح، ودارت تلك الصورة في أغراض محدودة أهمّها الرثاء المديح والهجاء.

الرثاء :-

وللأمهاتِ نَصيبٌ في ذكرهن على ألسنةِ الشعراء، وَصعُبَ عليهم تَأبينها في مجالِ الرثاءِ والتعزية[4] والمواساة. من ذلك قصيدة لابن زيدون في رثاء أمّ المُعتضد، يذكر حُسنَ خَلقها وأخلاقها معرّجاً على أحاديثها الساحرة التي تفوح مسكاً. متأسفاً على فقدهم إياها فقد عدّها فخراً للدين والدنيا معاً قائلاً[5]: [الطويل]

---

(1) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده : ص٨٠ ، ط-٤ دار العلم للملايين - ١٩٧٩.

(2) الحميدي : جذوة المقتبس : ص٤٣ تحقيق إبراهيم الإبياري . ط-٢ بيروت -دارالكتاب. وانظر علي أدهم ، عبد الرحمن الناصر : ص١٠ ط- دار القدس، بيروت.

(3) المرأة عبر التاريخ: ص١٠.

(4) الذخيرة : م١ ق٢ ص٤٩٠.

(5) ديوان ابن زيدون : ص١٣٤ تحقيق نديم مرعشلي - الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.

خلائقُ مُمْهاةُ الفرنـد، كأنهـا حدائقُ روضِ الحَزْنِ جِيد، فأينَعـا[1]
تنافحُها منها أحاديـثُ سُـؤْدُد تُخالُ فتيتَ المسكِ عَنهـا تَضـوَّعا
ودُمتَ مُلقّى أنجم السَّعدِ، باقياً لدينٍ ودنيـا، أنـت فخرهُمـا معـاً

ثم جسّدَ وقع المصاب الأليم ، فهو بلاشـك عظـيم علـى نفوسـهم ومثلـه قوله[2]:[الطويل]

أصبنا بما لو أن هضتَ متالعٍ أُصيبَ به لا نهدَّ ، أو لتضعضعا

ويستمرُ الشاعرُ بوصف تَقَواها وَوَرَعِها وبرها المتواصل فهـي حقـاً مثـالُ للخيرِ وشمسُ أفلتَ هُداها بَعدَ أنْ كانت مشرقَةً لمحرابٍ في خِدْرِها، يقول:[الطويل]

منارٌ من الإيمان، لم يَعْـدُ أنْ هـوىَ وحبلٌ من التَقوَى ، وهـي فتَقطَّعـا[3]
وشمسُ هُدىً أمس لها التربُ مغربـاً وكان لها المحرابُ في الخدرِ مَطلعـا
إذا ما هي استوفت من البـرِّ غايـةً تأتت لأخرى لا تـرى تلـك مقنعـاً

ونجد أبا بكر[4] بن عبد الصمد قد بَثَّ شجونه بمـوت والـدة المعتمـد بـن عبادالتي بدت مجالستها للرجال واضحة وحضورها المنتديات، فلـم يعـد المجلـس مقتصراً على الرجال وحدهم بل والنساء كذلك:[الكامل]

---

(1) ممهاة الفرند :مصقولة اي تامة الحسن. الحزن : الأرض الصعبة . جيد: أي جادها الغمـام . فأينعا : ازدهر.
(2) ديوان ابن زيدون : ص١٣١ – ١٣٢. تحقيق نديم مرعشلي.
(3) المصدر نفسه: ص٥٥٠ –٥٥٥ شرح وتحقيق علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر بالفجالـة – شارع كامل صدقي –١٥٧.
(4) تاريخ أسبانية الإسلامية(أعمال الإعـلام): ص٣ – ص١٦٥ –١٧٠. أورد الفـتح أول هـذه القصيدة في قلائد العقيان : ص٣١.
أبو بكر (وأبو بحر) بن عبد الصمد : يوسف بن أبي القاسم خلف بن خلف بن أحمد. لقد قست الدنيا عليه فاتصل بالمعتمد بن عباد ، وَحَظيَ عنده فارتقت منزلته ونال من المعتمـد عطايـا كثيرة. ولم تحدد سنة وفاته، ويبدو أنه توفيَّ في أواخر القرنَ الخامس للهجرة. انظر العمـاد الأصبهاني: خريدة القصر وجريدة العصر : القسم الخاص بشعراء الأندلس وأدبائها: ص٦٠٩ تحقيق الأستاذين عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم – دارنهضة مصر – القاهرة.

إني لأعجبُ من ضجيعتك التي ... قد كان قربُك أنسها في النادِ
جاورتها في قبرِها فكأنما ... قد كنتُما في ذا على ميعادِ

وقد كنّاها بأمّ الملوك مُخْبِراً إياها بزيارةِ ابنها البار، متألماً على فقد تلك السجايا والخصال، وصوّرَ حِدادُ الدنيا لفقدها المجد والعلا معاً قائلاً:[الكامل]

أُمَّ الملوكِ أما علمتِ بزائرٍ ... لكِ ذي وفاءٍ مُخلص ووداد
أبكي العُلى والمجد فقد كما الذي ... لبست له الدُّنيا ثيابَ حِدادِ
لَهفي على تلك السجايا إنّها ... زَهرُ الرُّبا موشيّةُ الأبرادِ

من الطبيعي أن يكونَ رثاءُ الشاعر لوالدته أصدق رثاء ذلك لأنه يتفجر عن معاناة حقيقية فيعكس صورتها، ولكن عَزَّ على إدريس بن اليماني المتوفي (٤٧٠هـ) أن يرثيَ والدَتَهُ بألفاظٍ تخرُجُ من مكانِ دُخولِ الطعامِ لكونها أرفعُ من أنْ تُرثى بكلماتٍ كهذه يقول[1]: [الوافر]

وأمّتَيا إلى الأحداثِ أمٌّ ... يعزُّ علَي أنْ صارَت أمامي
وأكبرأنْ يُرثّيها لساني ... بلفظٍ سالك طُرقِ الطعامِ
ومَنْ لي أن أصُوغَ الشُهبَ شِعْراً ... فألبَس قبرَها سِمطيْ نظَامِ

وجسّدَ الشاعرُ صدقَ العاطفةِ التي تربطُ الإبنَ بوالدته والحاجةَ الدائمةَ لها، لقد شَعَر بفقدِ تلك الأم الرؤومِ كأنهُ طفلٌ رضيعٌ في حين هَرِمَ وطالت أيام عُمرِهِ[2]:[الوافر]

مَضَتْ وقد اكتهلتُ فخلتُ أني ... رَضيعٌ ما بلغتُ مدَى الفطامَ
فيا ركبَ المنونِ أما رسولٌ ... يبلّغُ روحها أرَجَ السلام
ذكياً يَسحبُ الكافورُ منه ... بمثلِ المسكِ مفضوضَ الختامَ

---

(1) الذخيرة : م١ ق٣ ص٣٥١.

(2) المصدرنفسه : والصفحة نفسها.

ويبدو أن أخاً لها توفي قبلها فرثته بأبيات شعرية ارتقت بهـا إلـى مسـتوى الشواعر الكبار، وجاء شعرها من السهل الممتنع:[الوافر]

اشاعَتْ قَبْلَها وَبكـتْ أخاهـا فأضحَتْ وهي خنساءُ الحمامِ
شَجَتْكَ بظاهرٍ كقريضِ ليلي وباطنه عَويصُ أبي حـزام[1]

ومن الأمهاتِ من تميزَت بالخصال الحميدة الفاضلة وفاقـت الرجـالَ بتلـكَ الشمائلَ، تظهُر هذه الأمُّ عاليةَ الأخلاقِ عند الشاعر التطيلي المتوفي (٥٢٥هـ) بقول :[البسيط]

يا قبرَ أمّ عليٍّ هل علِمتُ بهـا إنّ السيادةَ بين الشُرْبِ والمـدر
أُنثى ولكن إذا عَدُّوا فَضـائلَها لم يَدّعِ الفضلَ من أُنثى ولا ذكرِ

ويستمرُ بوصفِ مآثرها، فهي حافظةٌ ومعلمةٌ للقرآنِ، مبتعـدةٌ عـن الظلـم والجَورِ صَوامةٌقوامةٌ، تَقيُّة وَرِعةٌ ، ولا ندري قد يكـون لمثـلِ هـذه الأمّ الفاضـلة مثيلات[2]:[البسيط]

تتلو الكتابَ وتتلـو مـن مآثرهـا آيا كآيٍ، ولَـمْ تَظْلُـمْ ولَـمْ تَجُـرِ
قوّامـةُ اللّيـلِ تَتْلـوهُ وتقتنـه على اختلافيْهِ من طول ومن قصرِ
حتى إذا الصبحُ جلّى ليلَها فزعت إلى صيامٍ بمرضـاةِ الإلـه حـريِ

ومثله قوله في أخرى[3]: [الوافر]

---

(1) ليلى الاخيلية وأبو حزام العكلي، اتصف بشعره العويص.

(2) ديوان الأعمى التُطيلي : ص٦٩ تحقيق الدكتور –احسان عباس –طبعة بيروت– ١٩٦٣.

* أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة، وله كنيتان تردان في المصادر وهما أبو جعفروأبو العباس، كان ضريراً ولذلك شُهر بالأعمى، وهناك تطيلي أعمى آخر يعرف بأبي اسحاق إبراهيم بـن محمد. بعد عصر أبي جعفر التطيلي ، له ديوان شعر مطبوع أقام في اشبيلية ومات مُعتَبِطاً

(3) ديوان التطيلي : ص١٩.

أهلّـــي بالبكـــاءِ وبالنحيـــبِ فقد نَزح المحبُّ عن الحبيـــبِ
وقد وسِع الحوادثَ يومُ رُزء تضيقُ لها الصدورُ من القلوبِ
وآذنت المكـــارُم والمعـــالي بخطبٍ عاثَ حتى في الخطوب

وتبدو هذه الأمّ العفيفة الحافظة نَفْسَها عن كلِّ دَنَسٍ خالية من العيوبِ الظاهرةِ ، تنمي إلى نَسبٍ عالٍ شريفٍ يَشْهَدُ له بالعزةِ والنفعمةِ والعُلا وكـــانَ فَقْـــدُها كارثـــةً فُجِعَتْ بهِ قلوبُ الشبانِ والكهلةِ ، يقول[1]: [الوافر]

أيا لهفَ العلاء على حَصَـــان[2] مُبَرّأةِ العيـــونِ مـــن العيُـــوبِ
ربيـــةُ عـــزةٍ قعســـاء نابـــت منابُ الشمس إلا في الغـــروبِ
ولـــم ار مثـــل منعاهـــا مُصَـــاباً هفـــا بقلـــبِ شُـــبانٍ وشِـــيبِ

وقد نعاها أبناؤها بدموع مهراقةٍ سكوب [3] :[الوافر]

أقـــولُ وقد نَعاهـــا ناعياهـــا وأشبُلُها بمنهلّ سَـــكوبِ
ألم يَربِ الردَى تضـــييعُ سِـــرٍّ تَبلّدَ فيهِ أوهامُ الغيُـــوبِ

لقد ظهرت في مراثي الأمهات نماذج من الخيّـــرات اللائـــي احتضَـــنَهنّ المجتمَـــع الأندلسي، فمنهن العفيفةُ النزيهةُ والتقيّةُ الوَرعةُ والشاعرةُ المتمكنةُ والمعلمة الفاضـــلة يقول التطيلي[4]:[الوافر]

---

(1) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢)حصان : إمرأة حصانٌ، بفتح الحاء: عفيفة بَيِّنةُ الحصانةِ والحُصْن ومتزوّجةٌ أيضاً مـــن نســـوة حُصُنٍ . فهي حصان إذا عفت عن الرّيبة . أنظر لســـان العـــرب: ص١١٩ – ١٢٠ (مـــادة حصن) م الثالث عشر. طـــ. بيروت – ١٩٥٦.

(٣) ديوان التطيلي : ص٢٣٢.

أشبلها : أبناؤها، منهل سكوب يعني الدمع.

(٤) ديوان التطيلي : ص٢٣٢.

ووأسفاً على غفَلاتِ عيشٍ تَخَونَّ عهدَها الزمَنَ الخؤونُ
أصبتُ بملءِ بُردَيها عَفافاً وعندَ مُصابها الصبرُ اليقينُ
بقائمةِ الدُّجى جَنحاً فُجنحاً إذا ازدحمتْ علي النوم الجفونُ
وصائمةِ الهجيرِ إذا توارى خِلالَ الطُّحلَبِ الماءُ المَعينُ

وربما أشارَ الشاعرُ إلى أنّ هذه الأم المؤمن من النساء المبشرات بالجنّة. فقد جاء في قوله تعالى "والّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَنُدْخِلُهَم جَنّاتٍ تَجْري من تَحتِها الأنهارُ "[1] ...يقول التطيلي[2]: [الوافر]

وبُشِرَت الجِنانَ وساكنوها وأوحشتِ الشهولةِ والحَزون

وظهرت والدة الحكيم ابن رأبي الصلت أُمية بن عبد العزيز الداني المتوفي (٥٢٩هـ) خليلة صادقة وفيّة لابنها بفقدها رَزء رزءًا عظيماً يقول[3] :[الطويل]

أخلاء صدقٍ بدّد الدهرُ شَملَهمْ فعاد سحيلاً[4] منهم كلّ مبرمَ
رُزِئْتُ باحفى الناس بي وأبرّهم وأكبرْ بفقدِ الأم رُزءاً وأعظِمَ

---

(١) القرآن الكريم : سورة النساء : الآية ١٢٢.

(٢) الديوان : ص٢٣٢.

(٣) ديوان الحكيم أبي الصلت: ص١٤٢ -١٤٣. تحقيق محمد المرزوقي ط. أندلسية سنة ١٩٧٤.

(٤) السحيل : الخيط غير مبرم

أبن الصلت أمية: كان يكني بالأديب الحكيم. ولد بدانية سنة ٤٦٠هـ وقضى في اشبيلية ودانية مدة شبابه. وله كتاب الحديقة على اسلوب يتيمة الدهر. وأخذ عن فطاحل عصره إذا كانت الأندلس كعبة العلم والعلماء. غادر الأندلس إلى مصر، توفي ٥٢٩هـ، واختلف في وفاته قيل ٥٢٠. أنظر الخريدة: جـ١ ص١٨٩ تحقيق محمد العروسي الجيلاني – الدار التونسية – ١٩٦٦. نفح الطيب : جـ٢ م٢ ص٣٠٨.

ومن الصور التي وردت في الشعر صورة الأُمّ الثكلى المضرمة الصدر التي لا تجدمن يواسيها في بلواها سوى الإيمان بالله والتصبر بالتقوى: وقد أشار المعتَمد في رثاءِ إبنيهِ المأمون والراضي بعدَ خَلعهِ قائلاً[1]:[الطويل]

معي الأخواتُ الهالعاتُ عليكما ... وأُمكما الثكلى المُضرَّمةُ الصَدرِ
تُبكّي بدمعٍ ليسَ للغيثِ مثلُهُ ... وتزجُرُها التقوى فتُصغي إلى الزَّجرِ
تذلّلهُا الذكرى فتفرغُ للبكا ... وتصبر في الأحيان شُحّاً على الأجرِ

المديح:-

أمّا في مجال المديح فقد نالت الأُم نصيباً منه بذكر المحاسن والخصال الحميدة الفاضلة .. وقد اثنى ابن عباد على أُمّ مالك حين قال[2]:[الطويل]

سقى أثلاثِ الجزعِ من أم مالكٍ ... عشارُ سحابُ مترعات حوافل

وربما كان الدافع إلى مدح ولد المنصور بن أبي عامر كون أُمّه تميميّة إسمها فريهة بنت يحيى، فقد حاز على الشرف من طرفيه. وأشار ابن درّاج القسطلي إلى ذلك قائلاً[3]:[الطويل]

تلاقت عليه من تميم ويعربٍ ... شموسُ تلالا في العُلى وبدورُ
من الحميريّين الذين أكُفُهم ... سحائبُ تهمي بالنَّدى وبُحورُ(*)

وقد مدَحَ الحرّةَ حواء قائلاً[4]:[البسيط]

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء : جـ٢ ص٦١. طـ. الأولى ١٩٦٣. تحقيق حسين مؤنس.
(٢) الذخيرة: م١ ق٢ ص١٠٢ . وانظر نفح الطيب : جـ٢ ص٨٤.
(٣) الديوان : ص٣٠١طـ. الأولى – ١٩٦١م تحقيق محمود علي مكي – منشورات المكتب الإسلامي بدمشق. وانظر ابن عذارى : البيان المغرب في اخبار ملوط الأندلس والمغرب: جـ٣ ص٢٧٤. تحقيق . أ. ليفي بروفنسال.
* القسطلي : أحمد بن محمدبن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج، كنيته أبو عمر. تردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم وحفظ القرآن والم بمبادئ النحو واللغة والأدب والأنساب والفقه وأنشد للمنصور بن أبي عامر. أنظر ديوانه : ص١٩ – ٤٠.
(٤) ديوان الأعمى التطيلي : ص١٨.

هم أورثوكِ العلا واستخلفوكِ على آياتها، وحذا الأعقابُ والعقبُ
أهلَلتُ بالحرّةِ العُلْيا إلى أملٍ لمثلهِ كانت الأشعارُ تَنْتَخبُ

وحواء هذه مثال للخير... لا بل هي أفضل من كلٍّ من دبّ على البسيطة يقول[1]:-

حوّاءُ يا خيرَ من يسعى علّى قَدمٍ ولَستُ عَبْدَك إنْ لم أقضى ما يجبُ

ويستمر في مدحها مفتخراً بها ذاكراً بَرها الذي عمّ سكان الأرض جميعاً قائلاً[2]:[البسيط]

إليك أهديتُ مما حاكه خَلَدي فخراً يَجدُّ، وتُبلى هذه الحقَبُ
قدعمّ برُّكِ اهل الأرض قاطبةً فكَيف أخرجَ عنه جارُكِ الجُنُبُ

وتُطالعنا ظاهرةُ النسبةِ إلى الأمهاتِ والتسميةِ بهنّ مما يَدلُ على اعتزازِ وإحترام الأبناء لهنّ ، على سبيل المثال ثار رجل من البربر وكانت أمه تسمى "فاطمة" فأدعى إنه فاطّمي[3]. ومن الرجال الذين تَسَموا بأسماء أمهاتهم ابن مريم[4]. وابن القابلة السبتي[5] (*) ومن الشعراء الذين نسيبوا إلي أمهاتهم الشاعر المعروف بابن اللّبانة المتوفي (٥٠٧هـ) [6] وهو محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللخمي الأندلسي الذي أشتهر باسم أبي بكر عيسى بن محمد الداني، ولقب اللّبانة إستَمده من

---

(١) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.
(٢) المصدر السابق نفسه: والصفحة نفسها.
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ٢ ص٥٤. تحقيق ومراجعة ج. س كولان وأ. ليفي بروفنسال – دار الثقافة – بيروت – لبنان.
(٤) المصدر نفسه: جـ ٣ ق٢ ص٢٠٢.
(٥) الذخيرة : م١ ق٤ ص٣٨٠.
• عبد الله ابن القابلة السبتي، ولابدَّ أنْ نُفرِقَ بينهُ وبين ابن قابلة آخر ليس سبتياً وهو محمد بن يحيى الشلطيشي. انظر الذخيرة : م١ ق٤ ص٣٨٠. وانظر المغرب: جـ١ ص٣٥٢.
(٦) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات: جـ٢ ص٢٦٠. طـ بولاق.

والدته التي كانت تَبيعُ اللَّبَن لِتُعيل أطفَالها. ومثلهُ ابن الغاسلة. وغيرهم من الذين انتسبوا إلى أمهاتهمْ.

المواساة :-

وقد يَجدُ الشاعرُ أمة ملاذاً للرجوع إليها في فَتَراتِ الضيق والحَرج فيتوجه بكلمة كريمة لها ... تلك الأُمّ المقرّحة الجفنين الساهرة العينين، فيصبّرها على بلواها قائلاً لها لستِ أوّلَ حرّة طوت المنايا على مرارة الثّكل، مواسياً لها في أن تعتبر بأم موسى العظيمة التي دفعت بفلذة كبدها إلى اليمّ، قد تكون طريقة من طُرقِ المواساة التي لم نألفها من قَبْلُ، وأن كانت آلام الثّكل لا تقتصر على الأندلسيين وحدهم، يقول ابن زيدون[1]:[الطويل]

أمقتولةَ الأجفانِ مالك والهـا ... ألم تُرِكِ الأيامُ نجماً هوى قبلي
أقلّي بكاءً لستِ أوّل حرّةٍ ... طوت بالأسى كشحاً على فضضِ الثّكل
وفي أمّ موسى عبرة أن رمت به ... إلى اليمّ في التابوت فاعتبري وأسلي

شتم الأبناء عن طريق أمهاتهم: -

ومما يلاحظ أن الأم تشارك إبنها في شرفها وضعتها شاء أم أبي يرتفع برفعتها ويتضع بضعتها، ولكن الأمَ ترتفعُ مكانتها الإجتماعية إذا أنجبتْ ولَداً، على الأخص إذا كانت سرّية، فيحتفظ بها سيدها فلا تباع ولا تشترى وتسمى (أمّ ولد) [2]، وسنتكلم عن إمهات الأولاد بصورةٍ أوفى في مبحث الجواري.

---

(١) أنظر ديوان ابن زيدون: ص٦٦. تحقيق نديم مرعشلي.

(٢) يقول الأصمعي (كانت بنو أمية لا تبايع لبنى أُمهات الأولاد فكان الناس يرون أن ذلك لابتهانة بهم، ولم يكن لذلك، ولكن لما كانوا يرون أن زوال ملكهم على يدابن أم ولد). أنظر العقد الفريد – المرجانة الثانية في النساء : جـ٦ ص١٠٣١، طـ ٣ – لسنة ١٩٦٦ تحقيق إبراهيم الإبياري.

وقد تعرّضَ الشاعرُ المعتمد بن عباد المتوفي (٤٨٨هـ) لشمس والدة الشاعر ابن عمار زارياً عليها ذاكراً قصرها المنيف وحياتها البائخة ، كل ذلك بتهكم لاذع وسخرية مرّة قائلاً[١]:[الكامل]

يا شمسَ ذاك القصرِ، كيف تخلّصت ... فيه إليك طَوارقُ الأقدار
تَتْلك شَعوبُ الموت حتى جاوزت ... غلبَ الرقابِ وساقي الأسوار

ومما جاء في هجاء الأمهات قول العَبادي[٢](*):[الوافر]

سألت وعند أمّك من ختاني ... بيان كان يشفى من سؤالي

ومما هجابه الشاعر ابن شهيد المتوفي (٤٢٦هـ) صورة العجوز الغانية، التي تجسدت صورتها في قرطبة بلد الشاعر يقول[٣]:[المتقارب]

عجوز(*) لعمرَ الصِّبا فانية ... لها في الحشا صورةُ الغانية
زنت بالرجال على سنها ... فيا حبّذا هي من زانية
تردّيتُ من حُزن عيشي بها ... غراماً فيا طول أحزانية

ومن المظاهرِ الاجتماعيةِ الظاهرةِ في المجتمع الأندلسي- إحترام الأم وسماع شكواها عند الحُكام، والتشدد في عقاب من يعقها. ففي عهد باديس بن حبوس. (وقفت له يوماً عجوزٌ فشكت عقوق ابنها، وأنه مدَّ يدهُ إلى ضربها،فأحضَرَهُ وأمرَ بضرب

---

(١) ابن الآبار : الحلة السيراء: جـ٢ ص١٥٧، طـ١ سنة ١٩٦٣ تحقيق د. حسين مؤنس . وانظر د. صلاح خالص: محمد ابن عمار الأشبيلي: ص١٣٧ طـ. دار المعارف.

(٢) المغرب : جـ٢ ص١٢٣.

* العَبادي : المعتضد بالله (العبادي) ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد تلقب بالمعتضد، اختلف في سبب وفاته (ت٤٦٣هـ) أنظر عبدالواحدالمراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ص٩٥ طـ. الأولى الاستقامة - القاهرة ١٩٤٩.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي: ص١٦٨ جمع وتحقيق يعقوب زكي، مراجعة د. محمود علي مكي طـ. دار الكتاب، القاهرة. وانظر الذخيرة: م١ ق١ ص١٠٨.

* قد يراد بالعجوز الدنيا

عنقه ، فقالت له يا مولاي ما أردتُ إلاّ ضربه بالسوطِ وأدبه فقال : لست بمعلم صبيان، وضرب عنقه) [1].

وللوالدة حقوق على الإبن فلو حملها وطافَ بها بيت الله الحرام لم يجزها[2].

ولقد وجدنا الأمّ نعم المربّية، حيث جمعت كما يقال خصال الدين والدنيا وربما كان لها صور أخرى لم نعثر عليها لضياع شعر تلك الفترة، كصورةِ زوجة الأب، أو زواج الأم الحرّة.

---

(١) المغرب: جـ٢ ص١٠٦ – ١٠٧.

(٢) ابن عبد البر القرطبي: بهجة المجالس وأنس المجالس: ص٧٥٧. تحقيق محمد مرسي الخولي. مراجعة د. عبد القادرالقط. ط١. دار الكتاب العربي.

المبحث الثاني

صـــــورة الأخـــت

يهُتت صورة الأخت في الشعر الأندلسي في الحقبة المدروسة، وقد لا نـدرك أسبابها. وربما تعود لأسباب نفسية ترجع إلى الشاعر نفسه.

ومثلما بهتت الأشعار فيها خفيت أخبارها ونستغرب للأمـر، لكـون المـرأة أصبحت قاضية حين (قعدت للمظالم) كـ(ثمل القهرمانة) [1] وحضر مجلسها القضـاة والفقهاء أيام المقتدر، ومنهن من كانت أختاً لخليفتين كـ(أسماء بنت هشـام) أخـت ، المهدي(*) والمستظهر(**)[2].

وقد إتسمت الأخت الأندلسية بالبطولة والشجاعة، تنتقم لتأخذ بثأر أخيها، فقـد بويع (الحسن بن يحيى الملقب بالمستنصر) سنة (٤٣١هـ) وعهدَ بتدبير الأمور إلـى الوزير أبي جعفر بن بقنة فأمر بقتل يحيى القاسـم فقتـل فـي ربيـع الثـاني عـام (٤٣٤هـ)، وكانت أخته زوجة للمستنصر، فما لبثت أن قَتَلتهُ مسموماً إنتقاماً لأخيهـا وقد هَلَك في السنة نفسها.

وتبقى رابطةُ الأخوةِ أعمق وأسمى الروابط الإنسانية تمثلـت فـي صـورة الأخت المقتولة[3] إنتقاماً من أخيها ذلك في عهـد بـاديس بـن حبـوس(***) سـنة (٤٥٨هـ) [4].

---

(١) أنظر نقط العروس : ص٧٤.

* المهدي : هو آخر خلفاء من ولي الأمر من بني مروان بالأندلس ولاية تامة. يعزل فيها ويـولي من آخر شرقها إلى اخر غربها. انظر ابن حزم جمهرة انساب العرب: ص١٠١ تحقيق عبـد السلام محمد هارون – دار المعارف مصر، ١٩٦٢.

** المستظهر: عبد الرحمن بن هشام الملقب بالمستظهر. ان أديباً شاعراً قتل وله إثنان وعشـرون سنة. انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه: ص٧٠-٧١.

(٣) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

*** باديس بن حبوس: انظر الإعلام : جـ٢ ص٤٠ وهو بـاديس بـن حبـوس بـن ماكسـن الصنهاجي. أبو مناد، الملقب بالمظفر، صاحب غرناطة ملك من ملوك الطوائـف بالأنـدلس. بويع بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٨هـ. توفي ٤٦٥هـ. أعمال الإعلام: ص٢٣٣.

(٤) البيان المغرب: جـ٣ ص٢٧٣ تحقيق إ. ليفي بروفنسال – دار الثقافة بيروت، ١٩٢٩.

ونجد الأخ يحملُ همَّ إخواته الأبكار، نتيجةً للظروف والتطاحن السياسي وتقلبات ظروف الزمان. هذا ما سجله الأمير عبد الله بن زيري[1] المتوفي (٤٨٣هـ) في مسألة زواج أختيه الأميرتين، حين قال: (رأينا من الصلاح، النظر لمن معنا من البنات وتزويجُهنَّ قبل أن يفجأ أمرٌ، فيكُنَّ على غير عصمةٍ ولا كفيل فتخيرنا لهما من بني عمِّهما شاكلةً، منهم مَعَدّ بن يَعلى، للذي كان عليه من النجابة والعقل والمحبة). إلى أن يقول الأمير (فعقدتُ لهما النكاح على أتمِّ ما يمكن واستعددتُ في سائر أمري بالأحزم، ووكلتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: (هذا جُهدُ الاستطاعة ودون جهدك لا تُلام. ولله أن يقضي بما شاء!) [2].

كنا نأمل أنْ نعثر على أجمل الأشعار، نظمها الشعراء في أخواتهم لما رأينا ما للمرأة من المكانة المتميزة في مجتمها وعلى صعيد أسرتها وعائلتها. بعد أن عرفنا إنّ الفيلسوف الشهير (دَينان) – ما مجصلة، (إن أجمل ما وضعه في مؤلفاته كان إلهاماً من أخته) [3].

ولا نجد صورة للأخت في الأشعار الاّ صورة للأخت المرثّية ولعلها أخت عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى[4] قائد الحزب الأموي. قال الفتح بن خاقان: (وكان المرتضى هو الذي أورثَ ناصر الدولة الملك ، إلى أنْ ماتت أخته فاحتفل في جنازتها إحتفالاً شكر في فعله ومشى إلى لحدها وما ركب إلاّ نعله وندب

---

(١) انظر مذكرات الأمير عبد الله بن زيري: ص١٣٩ – نشر وتحقيق إ. ليفي بروفنسال – ١٩٥٥.

(٢) المصدر نفسه: ص١٤٠ – ١٤١.

(٣) قاسم أمين : تحرير المرأة : ص٦٦ مطبعة المعارف – مصر ١٩٦٦.

(٤) المرتضىَ هو أخ هشام بن محمد الناصري الذي يويع بقرطبة سنة عشرين وأربعمائة. انظر جمهرة انساب العرب: ص١٠١ والذخيرة : م١ ق٣ ص٥١٥.

الشعراء إلى رثائها وتأبينها، وإيضاح فضائلها وتبنيها، فقام أبو بكر)[1] الداني علـى قبرها وقال:[الطويل]

أبنتَ الهدى جدّدتِ منعيً على منعى
مضى المرتضى اصلاً واتبعتِه فرعا
جرى الموتُ جريَ الريحِ في منبتيكُما
فـأذواكِ رَيحنـاً وكَسّـرَةَ نَبعـا
على نَسـقٍ جـاءَ المصـابُ وإنمّـا
تَقَـدَم وتْـراً وأتْبعَتْـه شَفْعـا

وقد جسد فضائلها قائلاً[2]:[الطويل]

لَئِن وقفـت شمـسُ النهـارِ ليُوشَعٍ
فقد وقفتُ شمسُ الهدى لِيَ والشهبُ
عقيلةُ بيَتِ المجـدِ لم ترَها الدجـى
ولا لَمحتْها الشمسُ وهي لها تِرْبُ

ولا نكاد نجد غير هاتين المقطوعتين.

---

(١) قلائد العقيان: ص٢٨٥ قدم له محمد العنابي، طبعة مصورة عن باريس ١٩٦٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٢٨٥.

المبحث الثالث

صورة الزوجة

موقف الإسلام من الزواج والزوجة

لم يكن للزوجة شأنٌ يُذكر في الأمم السابقة فعدّها اليونان رجساً من الشيطان ولاحقٌ[1] لها في الميراث لكونها أنثى ولأن هذا الحق خاص بالرجال. وكذا حالها لدى الرومان والهنود، فحقوقها وما يتعلق بها بيد زوجها حتى إن الهنود كانوا يحرقونها إذا مات زوجها ويدفنوها معه. ولا زال بعض الهنود يحرقون الزوجات إنْ أردن ذلك – وإلاّ فهن يعشن منبوذات بائسات. وقد صدر ردع بذلك مؤخراً، عساه يطبق لأن هذا مناف للروح الإنسانية!!.

لقد كرم الإسلام الزوجة ورفع من شأنها وميّز مركزها وقرنها بالرجل في معظم الآيات القرآنية، يقول جلّ شأنه "يا أيُّها النّاس أتّقوا ربّكم الذّي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زَوجَها وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً."[2]... الخ . وقوله تعالى "هُوَ الذّي خَلَقَكُمْ من نَفْسٍ واحدةٍ وجَعَلَ منْها زَوْجَهَا"[3] ... فالمرأة والرجل كلاهما من معدن واحد وهما متساويان في المنشأ فلا ينبغي أنْ يتباينا. وحظيت بحقوقها كاملة ومن جملتها حق الأرث فسمح لها أنْ ترث أبويها أو زوجها أو أبناءها وغيرهم، وهكذا يضمن الإسلام للمرأة حقوقها ويكرمها مثلها مثل الرجل ولا نقول تماماً ذلك (لأن الله فَضّلَ الرجال على النساء،على سبيل المثال فضلهم في الشهادة والزواج بأربع، وزيادة النصيب في الميراث، وأمر الطلاق، والرجعة والإنتساب،)[4]. (لما ظهرَ الإسلام وضع أحكاماً للزواج والطلاق وتعدد الزوجات[5]) بنظرةٍ قائمةٍ على الرّحمة

---

(١) انظر د. مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون: ص١٨ط. الثانية مطبعة الأصيل – حلب – ١٩٦٢.

(٢) القرآنالكريم: سورة النساء : الآية رقم ١.

(٣) سورة الأعراف: الآية رقم ١٨٩. وانظر محمد فؤاد عبد الباقي المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط.. دار مطابع الشعب سنة ١٩٤٥.

(٤) انظر صلاح الدين الناهي: الأسرة والمرأة : ص١٥. ط.. بغداد ١٩٥٨.

(٥) أنظرمحمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب : ص٣٥ ط.. – ١٩٦٢.

والمودة إلفة بين روحين، وأنساً يسكن إليه الزوجات فهذه النظرات حفظت للزوجة كرامتها وجعلتها مهابة الجانب، مقابل ذلك واجبات معينة تؤديها تجاه زوجها. إنّ الرجل والمرأة يؤلفان شطري الإنسانية[1] يكملان الواحد الآخر ولكن أعدّ كل منهما لمهام معينة وهذا وجه إختلافهما[2]. والإزدواج البشري الذي دعت إليه الفطرة وحثّ عليه الدين يستحب تهنئة الزوجين والدعاء لهما بالخير[3].

ولقد سَمَحَ الإسلام بتزوج المسلم بالكتابية وبالأمة.

قال سبحانه وتعالى في التزويج بالمحصنات من المؤمنات ومن الكتابيات، "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ والمُحْصَنَاتُ من الذّينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبلِكُمْ إذَا آتيتُمُوهُنَّ أجُورَهُنَّ"[4]

وقال في تزويج الإماء "فَانْكِحُوهُنَّ بِاذْنِ آهْلِهِنَّ وآتُوهُنَّ أجُورهُنَّ بالمعروف[5].

وعليه فقد وجدنا الرجل العربي المسلم إرتبطَ بالمرأة الأندلسية سواء أكانت نصرانية كتابية، حرة أم أمة، إرتباطاً وثيقاً عن طريق الزواج.

نقل لنا أحد المؤرخين الأندلسيين ، في مجموعة نصوص أدبية لم يتيسر لها الطبع نص عقد زواج تشترط فيه الزوجة على الزوج أن لا يتزوج إمرأة أخرى ولا يتسرى بجارية، ويكون بيدها حق الطلاق متى شاءت[6].

---

(١) المصدر السابق نفسه: ص٢٢ -٢٣.

(٢) محمد جميل بيهم: فتاة الشرق في حضارة الغرب: ص٢٦ طبعة -١٩٥٢.

(٣) انظر علي حسب الله : الزواج في الشريعة الإسلامية: ص٣٣ - ٣٤. ط الأولى-١٩٧١.

(٤) سورة المائدة : الآية رقم ٥.

(٥) سورة النساء : الآية رقم ٢٥.

(٦) د. صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري: ص٩٦ عن مخطوط الأسكوريال رقم ٤٨٨. مطبعة سميا - بيروت ١٩٦٥.

ربما يدل هذا النوع من المكاتبات والشروط على وعي المرأة وشعورها بمكانتها في كَونِها كفؤًا للرجل، وإنتزاعها لحقوقها إنتزاعاً، وإن كان فيه بعض المغالاة وتجاوز على الشريعة.

ويرى أحد الباحثين، (إنّ الزوجة همها انتزاع حب زوجها وإعجابه ليزداد تعلقه بها بمختلف الوسائل ، ولكن المجتمع بتقاليده وعادته ونظمه لا يسمحُ لها بتحقيق هدَفها هذا بسهولةٍ ولا يجعلُ مهمتها يسيرة فمن حقُ الرجل الذي يُكلفه العرفَ والقانون أن يُحِب نساءَ آخريات لأنه يستطيع إذا توافرت له الإمكانية الماديّة أن يتزوج بأربع نساء وأن يشتري من الجواري العدد الذي يرغب فيه) [1].

على أنَّ نظامَ تعددِ الزوجات مألوفٌ عند العرَبِ وكان اسلافنا يمارسونه قبل الإسلام وظلوا يمارسونه على وفق التشريع بد ظهوره، وازدادَ شيوعاً بعد دخول العرب الفاتحين إلى الأندلس[2]. علاوة على احترام المرأة والرفق بالضعفاء (كل هذه الخصال النبيلة انطلقت من الأندلس وإسبانيا العربية واكتسحت أوربا ثم انطلقت مرة أخرى مع الثقافة الإسلامية من الشرق الأدنى بالحروب الصليبيّة، فأصبح العالم، على اختلاف لغاته، وكأنه عربي ليتمخض بمولود جديد؛ هو التمدن الحديث) [3]. وربما كان لا يتم عقد الزواج في الأندلس إلاّ بعد موافقة أهل الفتاة حتى ولو كانت سبية. وقد يكون قول بثينة بنت المعتمد بن عباد لإبن أحد تجار إشبيلية لمّا أراد الدخول عليها امتنعت وقالت: (لا أحلُّ لكَ إلاّ بعقدِ النكاح أن رضىَ أبي بذلك) [4] ووجهت كتاباً لأبيها وأنتظرت جوابه ومما جاء فيه قولها[5]:[الكامل]

---

(١) المصدر السابق نفسه : ص٩٣

(٢) محمد سلام زناني: تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية : ص٦٢ -٦٣. مطبعة دار المعارف بمصر. ط ١٩٦٣.

(٣) فتاة الشرق في حضارة الغرب: ص٩٧.

(٤) نفح الطيب : جـ٢ ص٢٠.

(٥) المصدر نفسه : جـ ٦ ص٢١.

وأرادنـــي لنكـــاح نجـــلٍ طـــاهرٍ حسن الخلائق من بني الانجـــاد
ومضى إليكَ يسوم رأيك في الرِّضا ولأنتَ تنظرُ في طَريقِ رَشادي

التكافؤ بين الزوجين:-

ويقصد بالتكافؤ أو الكفاءة أن يكون الزوجان كُلّ منهما مناسباً للآخر ســواء من حيث الظروف المادّية أو من حيث الظروف الإعتيادية وحالات عدم التكافؤ التي تناولتها الشريعة الإسلامية متعددة ويمكن حصر الحالات التي تناولها الفقهاء لا علـــى خلاف بينهم من حيث إستبعاد بعضها الآخر(١).

ولاحظ العرب الكفاءة في الزواج إذا كان زواج المرأة من غير الكفء أمـــراً يَمسّ الشرف(٢). حيث قال إبن عبد ربه: (إذا لم تجد المرأة كفئًا فخير زوج لها القبر) (٣). وتبدو مسألة الزوج الكفؤ شغلت الأندلسيين أيضاً. فقـــد وجـــدنا بثينـــة تستشـــير والدها: إن كان هذا الخطيب مناسباً لها أم لا. قائلة(٤): [الكامل]

فعساكَ يا أبَتي تعرفني بهِ إنْ كان ممن يُرتجى لِوادِ

وينقل لنا إبن الجوزي رايه في إختيار الزوج باجتماع اللّذات الحسيّة والعقلّية (فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية) (٥)

أما ميل القلب فيلعب دوراً في النكاح ، وقد كان هذا الميل والإعجـــاب ســـبباً مباشراً في كثير من الزيجات، من ذلك إقتران الرميكيّة من المعتمد بن عباد بعـــد أنْ أُعجِبَ بسرعة بديهتها وحسن ذكائهـــا وجمالهـــا فســـألها – أذات زوج؟ قالـــت: لا

---

(١) أنظر أطروحة عربية توفيق: المرأة في الشعر العراقي الحديث: ص١٥٠ ١٩٨٣.
(٢) علي الهاشمي: المرأة في الشعر الجاهلي: ص١٦٦.
(٣) العقد الفريد: جـــ٣ ص٢٢٤.
(٤) نفح الطيب : جـــ٦ ص٢١.
(٥) ابن الجوزي : صيد الخاطر: جـــ٢ ص٢٤٦، مطابع دار الفكر – ١٩٦٠.

فتزوجها[1](*)، بعد أن اعتقد أن هذه المرأة هي الزوجة المناسبة له لشاعريتها ولجمالها ... وكان من تاثير هذا الحب بينهما أن إحتلت هذه المرأة مكاناً كبيراً في قلب زوجها وأثرت في نفسه أعمق التأثير وتَحَمّلتْ معهُ عذاب النفس وشقاء الفقر وبؤس الفاقة والحرمان[2]. وكانت نعم الزوجة، وقد قيل (المرأة الصالحة كمثل التاج على رأس الملك والمرأة السوء كمثل الحمل الثقيل على ظهر الشيخ الكبير) [3]. وينقل لنا القرطبي قول الرسول محمد صلى الله عليه وسلم "الدُنيا كُلّها متاع وخير متاع الدنيا المَرأة الصالحة"[4].

وكثيراً ما وقف الآباء موقف الحيرة في اختيار الرجل المناسب لبناتهم ونقل لنا المقّري المتوفى (٤١ : ١هـ) صورة ذلك الأب قائلاً:-

(يا بُنيّة ، إني أصبحتُ على حَيرةٍ من أمرِك مما يَخطبكِ من المُلوك وما أرضَيْتُ واحدًا إلا سخطت الباقين، فقالت له: إجعل الأمر إلي تخلص، فقال: وما تقترحينَ؟ فقالت: أن يكونَ مَلكاً حكيماً ، فقالَ: نعْمَ ما اخترتهِ لنفسك) [5].

وقيل: (إنَّ من خَطَبَ بناتِ النصّر بالسّعدِ زُوّج ومن ألقَحَ الرّأيَ بالعزمِ أنتج) [6].. وينقل لنا أبو الفضل بن شرف الكاتب الناثر صورة امتناع الفتاة البِكّر عن الزواج لحين توافر العدل ولا ترتبط إلاّ بما يَليقُ بها، قائلاً[7]:[الكامل]

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد : ص٧٤. تحقيق أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد –المطبعةالأميرية بالقاهرة–١٩٥١.

• كانت حفلات الزواج والأعراس مضرباً للأمثال في البذخ والأبهة والجلال سنة ٤٧٧هـ. وعندما زوج أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية ابنته إلى المستعين بالله أحمد بن يوسف بن المقتدر حاكم سرقطة دعا إلى الاحتفال كبار الكتاب والوزراء. انظر العماد الإصبهاني: خريدة القصر وجريدة العصر: جـ٤ هامش ص٣٢٧. دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة.

(٢) د. صلاح خالص: المعتمد بن عباد الاشبيلي : ص٧١.

(٣) صيد الخاطر: جـ٢ ص٤٧٧.

(٤) بهجة المجالس وأنس المجالس: جـ٢ ص٣٠ دار الكتاب العربي.

(٥) نفح الطيب : جـ١ ص٢٢٩ – ٢٣٠.

(٦) الذخيرة : م٢ ق١ ص٧٤٧.

(٧) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان: ص٢٧١ مطبعة التقدم العلمية – مصر ١٩٦٤.

بِكرٌ بخلتُ على الأنامِ بوجهها ومنعتُها من ليس من أزواجها
فالنفسُ إن ثَبُتَتْ على أخلاقها أعيا على النَصاحِ طولُ لجاجها

رثاء شريكة الحياة:-

تكادُ صورةالزوجة تتضح في شعر الرثاء فتظهر فيه مفاهيم وقيم ومُثل حاولت أن تحرص عليها وتصونها كالأنسجام والتآلف الروحي وحسن المعاشرة وطيبها وطهارة العِرضْ، وأصالة العِرقْ. ولعل الشاعر الألبيري المتوفى (٤٦٠هـ) جسّدَ لنا كل ذلك في زوجته قائلاً[١]:[الكامل]

عُجْ بالمطِّي علي الِيباب الغامرِ وأربعْ على قبرٍ تضمنَ ناظري
فَلَكمْ تضمَّن من تقىً وتعفُفٍ وكريمِ أعراقٍ وعرضٍ طاهرِ
قَطَعَ الزّمانُ مَعي بأكرمِ عشرةٍ لهفي عليه من أبرٍّ معاشرِ
ما كان إلاّ ندرةً لا أرتجي عِوضاً بها مرثيةً بنَوادِرِ

ولقد احتلت الزوجة مكانة مرموقة عظيمة في نفس زوجها، تمثلت برابطة متينة سامية، وعلاقة محكمة الأواصر. وربما كان من أصدق الوفاء للزوجة والإخلاص الروحي لها قوله[٢]: [الكامل]

إني لأستحبيه وهو مغيّبُ في لحدهِ فكأنه كالحاضرِ
أرعى أذمتهُ وأحفَظُ عهدَهُ عندي فما يجرى سِواهُ بخاطري.
إن كان يُؤثَرُ جسمُهُ في رَمْسِهِ فَهوايَ فيهِ الدَهرَ ليس بداثِرِ

---

(١) ديوان الألبيري: ص١٣٢ – ١٣٣. نشر غرسية غومس – ١٩٤٤طـ. مدريد – عن مخطوطة في مكتبة الأسكوريال. اشتهر بالألبيري: هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبيّ الألبيري. شاعر مجيد شعره كله حكم ومواعظ ٤٦٠هـ.

(٢) المصدر نفسه : ص١٣٣.

بدت مثالاً للنزاهة ونهجاً للهداية، تلك الزوجة التي رثاها الأليبري التجيبيّ المتوفى (٤٦٠هـ) قائلاً[١]:[الكامل]

وإذا أردتُ نزاهـــة طالعتُهـــا ... فأجولُ منها في أنيقٍ زاهـرِ
وأرى بها نَهْجَ الهدايـةِ واضـحاً ... ينجو به من ليس عنه بجائرِ

ولمكانة الزوجة المتميزة، تبدو الحيرة واضحة، والجزع الشـديد، والفجـوة الواسعة التي تركتها لزوجها بعد رحيلها. يقول[٢]:[الكامل]

قد آن لـي أنْ أستفيقَ وأرعـيِ ... لو أنني ممن تصحّ بصـائري
فَلَمْ أروحُ وأغتـدي فـي غمـرةٍ ... مترتّداً فيها كمثـلِ الحـائرِ
وأرى شبابي طاعناً فـي عسـكرٍ ... عنيّ وشيبي وافـداً بعسـاكر
فغدت مظفّـرةً علّـيَ ولمتَـزلْ ... قَدَما معـلاّةَ قـداحِ الظـافرِ
ولقد رأيتُ من الزمـانِ عجائبـاً ... جرّبتُها بمواردي ومصادريَ

أمّا الشاعر التطيلي المتوفي (٥٢٥هـ) فقد رثى إمرأته رثاء الزوج المخلص الوفي، فتساءل؟ عمّا فعل الدهروجار؟فغيّر البلى بشاشة وجهها وطلاقته، فنراه تـارة يبكي بدموع حرّى وثانية يتصبر بالتجلد قائلاً[٣]:[الطويل]

ونبئتُ ذاك الوجـه غيّـرهُ البلـى ... على قُرب عَهـدٍ بالطّلاقـةِ والبِشـرِ
بكيتُ عليـه بالـدُموع ولـو أبَـتْ ... بكيـتُ عليـه بالتجلُّـدِ والصـبرِ
وما فعلتُ تلك المحاسُن في الثَـرى ... فقد ساءَ ظنـي بـين أدري ولا أدري

ولمعزّتها ، يهدأ رمسها ، لأنـه بـات مـأوى للحشـمة والحيـا والجمـال يقول:[الطويل]

---

(١) المصدر نفسه : والصفحة نفسها.

(٢) المصدر نفسه : والصفحة نفسها.

(٣) ديوان الأعمى التطيلي: ص٧٠.

هنيئاً لقبر ضمّ جسمَكِ إنه مقَرُّ الحيا أو هالةُ القمرِ البدرِ
وإنكِ فيه كلَّه عَبَثَ البلى بأرجائهِ كالغُصنِ في الورقِ النَضْرِ

وربما سلبت الزوجة لبّ وقلب زوجها وهيمنت على كيانه فأحبها حُبّاً روحيّاً خالصاً مع الوفاء لهذاالحب،وما شعوره بالتقصير بعد وفاتها لدليل واضح عليه. يقول[1]:[الطويل]

ذكرتُكِ ذكرَ المرء حاجةَ نَفْسِهِ وقد قيلَ إنَّ الميّتَ مُنْقَطِعُ الذكرِ
ووالله ما وفّيتُ رُزءَكِ حقَّهُ ولكنهُ شيء أقَمْتُ بهِ عُذري

ولعلَّ الآهات التي بعثها دليل قاطعُ على لوعتِه لفقدهِ الأليف المخلص والزوجة المحبة يقول[2] :[الطويل]

ألا لَيْتَ شعري هَلْ سَمِعْتِ تَأوهي فقد رُعْتُ لو أسمعتُ قاسيةَ الصخرِ
وهل لعِبَتْ تلك المعاطفُ بالنُّهى كسالفِ عهدي في مجاسدها الحمر

ويصور لنا الشاعر ابن حمديس الصقّلي المتوفي (٥٢٧هـ) منزلة الزوجة في كَنَفِ زوجها ومكانتها في الأسرة وعند الأولاد بلونٍ ربما لم يطرقة المشارقة وهو رثاء الزوجة على لسان أولادها.

فالزوج الشاعر لم يستطع الإعراب عن شعوره تجاه ذلك الرزء الجليل فراَح يُرثيها على لسانِ ولدَيْها ربّما إستحياءً أو مخافةً من لوم اللائم واصفاً برّها بقوله[3](*):[الخفيف]

لم أقُلْ والأسى يُصَدِّقَ قولي جَمَدَتْ عَبْرَتي فَلُذْتُ بحملي
ولو أني كَفَفتُ دمعي عليها عقّلي بُرِها فأصبحَ خَصيمي

---

(١) المصدر السابق : ص٧١.
(٢) المصدر نفسه : ص٧٢.
(٣) الديوان: ص٤٧٩ صححه وقدم له الدكتور احسان عباس – دار صادر– بيروت ١٩٦٠.
* ابن حمد يس : عبد الجبار ابن محمد الصقلي توفي في جزيرة ميروقة سنة ٥٢٧هـ عاش في اشبيلية وكان يرتاد مجالس الشراب فيها ويشهد مجالس الرقص التمثيلي فجاء وصفه للمرأة منبعثاً من هذا المنطلق ورثاء جوهرة التي غرقت بعد خروجه تمثلت فيها خصال المرأة الأندلسية.

كنتُ أخشى عليكِ ما أنتِ فيهِ لَوْ تَخيَّلتُ في مُصابِكِ هَمّي

وتصادفنا صورة العفاف والتقى والدعوات المستجابة النابعة من إيمانها بالله، يقول[1]:[الخفيف]

وعفافٌ لو ان في الأرضِ عادَتْ كلَّ عظمٍ من الدفينِ ولَحِم
وصيامٌ بكلِّ مطلعِ شمسٍ وقيامٌ لكلِّ مطلعِ نَجمِ
ولسانٌ دعاؤه مستجابٌ لي أودعتُه الرغامَ برغمي

ولقد تميزت هذه الزوجة بفضائل أهمها تبنيّها ورعايتها للأيتام. وكَرمها وأحسانها الذي شمل كلَّ الناس صغاراً وكباراً، وَصَدقَتُها الجارية التي أحيتهم وأنقذتهم من العدم. إنَّ هذه الفضائل قد تَدلُّ على رُقيِّ المرأةِ العقلي من ناحيةٍ وعلى مشاركتها الرجل في تصرفاته من ناحية أخرى. وقَلما نجد مثل هذه الصفات[2] عند غيرها من النساء في الأمم[3] الأخرى. يقول[4]:[الخفيف]

كم تكلّفتِ من كبيرةِ سِنٍّ وتَبَنَّيتِ من صَغيرةِ يُتمِ
فأضاقتْ يداك من صَدَقاتٍ كان يُحيا بهنَّ مَيّتُ عُدْمِ

ويؤكد ابن حمديس حسن أخلاقها، وإتصافها بالعفّةِ وصيانة العرض والشرف والأمانة وبعدها عما يشينها أو يكسبها الذمّ فاستحقت أن تكون في جّنة الخُلد ورياحين النعيم في الآخرة قائلاً[5]:[الخفيف]

---

(١) ديوان ابن حمد يس: ص٤٧٩.

(٢) انظر أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي : ص٣٦٧.

(٣) علي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي: ص١٨٢.

(٤) ديوان ابن حمديس : ص٤٨٠. وانظر ابن حزم الأندلسي : الأخلاق والسير في مداواة النفوس: ص٦٠ منشورات دار الأخلاق – بيروت طـ. الأولى – ١٩٧٨ والثانية ١٩٧٩.

(٥) ديوان ابن حمد يس : ص٤٨٠.

كان بين الأناس عُمُـرِكِ حمـداً قد تَبـرأت فيـه مـن كـلِّ ذمّ
أنتِ فـي جنـةٍ وروضٍ نعـيمٍ لم يسِمْ أرضَها السحابُ بوسـمِ

وينقل لنا أُمنيةُ بناتها في تَفديها بالأعاجم لفصاحتها وبلاغتهـا فـي الكـلام قائلاً[1]:[الخفيف]

وينادينَ بالتفجّع أمّاً يا فداءً لهاإجابةُ غَنمِ[2]

وقد يجسدُ رثاءُ الزوجةِ على لسان ولَدَيْها ما تَحمُلهُ مـن صِـلاتٍ بأبنائِهـا، ونظرةُ المجتمعِ إليها والعَلاقَةُ بينها وبين أهلها واقَربائها فهي أمٌ وزوجةٌ وربةُ بيـتٍ ومربيةٍ للأولاد. يقول [3]:[الخفيف]

لو بكى ناظري بصَوب دِماءٍ ما وفى في الأسى بحسرة أُمّـي
وضعتني كرهاً كما حملتنـي وجرى ثديُها بشَربي وطَعمـي
يا أبا بَكرٍ : المصابُ عظـيمُ فهو يُبكي بكـلِّ سَـحّ وسَـجْم
أنتَ في الودّ لي شقيقُ وفـاءٍ ومصابي إلى مُصـابِكَ يِنْمـي
أنتَ في صَفوةِ الافاضلِ نَدْبٌ في نصابٍ كـريمِ خـالٍ وعـمّ
فسقى التربةَ التي هِي فيهـا غَارضٌ منه رحمـةُ الله تَهْمـي

وقد تمتزج مشاعر الحب ومشاعر الحزن فنجد القصيدة في الرثـاء والغـزل معاً فتظهر صورة جمال الزوجة والإشادة بمحاسنها من خلال التفجع عليها، ورثائـه

---

(١) ديوان ابنحمديس : ص٤٨٠.

(٢) الغنم والأغنام : الذين في منطقهم عجمة. أي فداؤها هؤلاء.

(٣) ديوان ابن حمد يس: ص٤٧٧ –٤٨٠.

لها. فَيجسدُ الشاعُر لنا صورةَ قلبه المضطرب بفجيعته بزوجته وأم ولـده (جـوهرة التي غرقت في البحر ، فيقول [1]: [البسيط]

ايّا رشـاقةَ غصـنِ البَـانِ مـا هَصَـرَكْ	ويا تألُّقَ نَظمِ الشَـملِ مَـنْ نثـرَكْ
ويـا شبـؤوني[2] وشـأني كلُـهُ عجـبٌ	فُضّي يواقيتَ دمعي وأحبسي دررَكْ
مـا خلـتُ قلبـي وتبريحـي يقلبّـه	إلاّ جناحَ قطاةٍ في اعتقـال شـرَاكْ
لا صَبرَ عنكِ، وكيف الصبرُ عنـكِ وقـد	طواكِ عن عينيَ الموجُ الذي نشركْ

على ما يبدو أن الزوجة في رثاء الشعراء اسم تتجلى فيه كل معـاني الإلفـة ونكران الذات.

وصور إبن خفاجة الحشمةَ والحياءَ في رثاءِ هذه الزوجة التي بدت كالعذراء، قائلاً[3]:[الكامل]

وسطا بسيدة النساء وما درى	أن قـد سـطا بقليلـة النّضـراء
وإليك من حُرِّ الكلامِ عقيلـةٌ	قصرت خُطاهـا حجلـةَ العـذراء

---

(١) نسبها عمر الدقاق : ملامح الشعر الأندلسي: ص١٨٥ – ١٨٦ إلى ابن حمد يس وقد أخلّ بهـا الديوان – منشورات دار الشرق – بيروت ١٩٧٥. الشؤون: مفردها شأن ، وهي العـروق، وشأني معناها أمري.

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي: ص١٦٦، وأنظر عبد الرحمن البرقوني: دولة النسـاء: ص٥٤١ط. الأولي– مطبعة الاعتماد ١٩٥٤

الزوجات السرّيات:

وللعرب مقاصد في الزواج ليس المتعة فحسب وإنما التناسل وإنجاب الأولاد الأقوياء[1]: ونجد كثيراً من السراري القيان والإمات أصبحن أُمهات أولاد ينجبن الهجان المولدين من الرجل والنساء[2] .

وقد حرّم الإسلام من الإماء ما حرّم من الحرائر إلا العدد[3]، ونقل المقّري صورةً لأمة تصبح حُرّة بعد أنْ أولدها سيدها فمات عنها ثم تزوجها عبد، فأنجبت بنتاً، ربما شكلت هذه ظاهرة تعدُ من أهم الظواهر الاجتماعية التي عانت المرأة منها.

ولقد شاع نظام تعددالزوجات واتخاذ الرجل أكثر من زوجة له، يؤكد لنا ابن بسام ذلك في مقتل علي[*] بن حمود يقول : (ولما استطال نساؤه بالحمام دخلن عليه فلم يَرُعهُنَ إلاّ سيل دمه) [4]. ولكننا نجدزوجة واحدة فقط تتمتع بحمل لقب (السيدة الكبرى). وتكون الزوجة الأولى عادة ، أمّا بقيّة الزوجات فيكن مُحظيات[5]

وتتضح صورة محظيات المعتمد بن عباد عند توديعهّن لَيلاً وقد أخفَى وَجسدُه عليهنّ وَرَجِعَ فقال[6]:[الكامل]

دارى الغرامُ، ورامَ أنْ يتكتّما وأبى لسانُ دموعِه ، فتكلّما

---

(١) أنظر الإسلام في أسبانيا: ص٢٤ – ٢٥. والأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده: ص٤٥.
(٢) د. واجدة الأطرقجي: المرأة في الأدب العباسي : ص٢٣ دار الرشيد للنشر – ١٩٨١.
(٣) الذخيرة : م٢ ق٣ ص٨٣٩.
* علي بن حمودبن ميمون بن حمود بن علي . وهو أول ملوكبني هاشم بالأندلس لقبه، الناصر لدين الله كنيته أبو الحسن أمه البيضاء بنت عم أبيه، خلافته سنة واحدة قتل عام (٤٠٨هـ). انظر البيان المغرب: جـ٣ ص١١٩– ١٢٠.
(٤) د. واجدة الأطراقجي: المرأة في الأدب العباسي: ص٢٣ دار الرشيد للنشر– ١٩٨١.
(٥) الذخيرة: م٢ق٣ ص٨٣٩.
* علي بن حمودين ميمون بن حمود بن علي. وهو أول ملوك بني هاشم بالأندلس لقبه، الناصر لدين الله كنيته أبو الحسن أمه البيضاء بنت عم أبيه، خلافته سنة واحدة قتل عام (٤٠٨هـ) أنظر البيان المغرب: جت٣ ص١١٩–١٢٠.
(٦) الديوان : ص٢٦.

رحلوا، وأخفى وَجدَه فأذاعه ... ماء الشُجون، مصَرحاً ومجمجما
سايرتُهم، واللّيلُ غفلٌ ثوبُهُ ... حتى تراءى للنّواظرِ معكما
فوقفتُ ثمّ مُحيّراً وتسلّيت ... منّي يدُ الإصباحِ تلك الأنجما

ويبدو الرجل قد وصل إلى درجة من الوعي العقلي، فلم يَعُدْ الجمال بنظره معياراً للسعادة أو شرطاً من شروط إقترانه بالمرأة قد يجد نعيمه في طيب عشرتها وفطنتها وبراعتها في قول الشعر. كما قيل وللناس فيما يعشقون مذاهب.

وساوس الزوجة :-

كان للتيارات التي رافقت العصر وما صَحِبَهُ من إبتذالِ القيان وكَثرةِ الجواري واختلاط الرجال بالنساء أثرٌ واضحٌ في إثارةِ الشكّ والقلقِ عند الحرائرِ من الزوجات فَرُحْنَ يَظُنُنَّ بأزواجهنّ الظنون، والمعتمد على الرغم من شعورِه تجاه اعتماد، له ما يُلهِيه أحياناً عنها وبملأ وقتهُ ويشغلُ فكرةُ فتثورُ غيرتها فتظن في زوجها الظنون. وهذه الأبيات تُقَدِمُ صورةً للحالةِ النفسيّةِ التي أصابتها، وموقف الزوج منها يقول[1]:[الطويل]

تَظُنُّ بنا أُمّ الربيعِ سآمةً ... ألا غفرَ الرحمنُ ذنباً تواقعُهْ
أأهجرُ ظبياً في فؤادي كناسُهُ ... وبَدرَ تمامٍ في جفوني مطالعُهْ
وروضة حُسنٍ أجتنيها وبارداً ... من الظّلْمِ لم تُحْظرْ عليّ شرائعُهْ
إذا هجرت كفٌ نوالاً تفيضُه ... على معتفيها أو عدواً تقارعُهْ

ومما أثارَ قلق الزوجات ووساوسهنّ شيوع مظهر الميل نحو الغلمان فكانت ضحيته المرأة لأنه سببٌ لإساءة عشرتها[2]، ولا ريب أن دوافعه كثيرة فساء ظنها به

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد: ص٢٣ . وانظر المصدر نفسه: ص٦٦تحقيق د. صلاح خالص.
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب: جـ٣ ص٢٣٦.

وهي معذورة، لقد بدت الزوجة تشك في حبه لها، مما دعا زوجها أن يصرح بحبه قائلاً[1]:[الطويل]

سَلي تعلمي ، إنْ كنت غير عَليمة ... بأنْ ليسَ في حُبّي لغيرك مطمعُ
وأنّ لَيَ القلبَ الذي ليس خالياً ... من الوجَدِ، والجَفْنَ الذي ليس يَهْجَعُ

ويَظهرُ أنها اثّرت في سلوكهِ تأثيراً إرادياً عَميقاً ووجهته وملكت زمامه يقول[2]:[الطويل]

يذكرنيكِ الغصنُ يهتزُ عندما ... يَهبُّ نسيم، والغَزالةُ تطلعُ
فوالله لا أَنفَكُ أذكر موضعي ... لديك، ولا أنفكُ نحوكِ أنزَعُ

ويبدو أنَّ هذه الأوهام لم تَكُنْ وَقْفاً على الزوجة بل دَبَتْ إلى قلب الرجل أيضاً ... فنجده هو الآخر قد انتابه القلق فراح يبعث إليها أشعاره قائلاً[3]:[المتقارب]

أقيمي على العَهدِ ما بيننا ... ولا تستحيلي لطولِ البعاد
دَسَسْتُ إسمك الحُلوَ في طيّهِ ... وألّفت فيه حُرُوف إعتماد

منزلة الزوجة عند بعلها:-

إحتلت الزوجة مكانة متميزة عند زوجها ومجتمعها بحيث أصبحت مضرباً للأمثال، وقد أورد ابن بسام بيتين من الشعر تضمنت تلك[4] المكانة:[الوافر]

أتيتُ بمنطق العربِ الأصيلِ ... وكانَ بِقدرِ ما عانيتُ قيلي
فعارَضْتُهُ كلامٌ كانَ فيهِ ... بمنزلةِ النساءِ من البعُولِ

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد : ص١٩-٢٠

(٢) ديوان المعتمد بن عباد ص١٩ ، تحقيق أحمد أحمد بدوي.

(٣) المصدر نفسه : ص٨.

(٤) الذخيرة: م١ ق٣ ص٢٠ – اختيار ابن بسام لهذه الأبيات تدل على مكانة الزوجة المتميزة.

ولقد شهد للزوجة صوابُ رأيها وتدبرها لشؤونها وبتها في بعض القضايا الخطيرة وحلّها للمشكلات المستعصيّة التي قد يصْعُبُ حلّها على الحكام والقضاة أنفسهم.

وقد كَتَبَ بعضهم مداعباً صاحبهُ، القاضي، الذي كان له زوجة يسترشد بآرائها وربما كانت تشاركه في إصدارِ الأحكام يقول[1]:[المتقارب]

بلْوشَةَ قاضٍ له زَوجَةٌ وأحكامَها في الورى ماضيةْ
فيا ليتَهُ لم يكنْ قاضياً ويا ليتَها كانتِ القاضيةْ

ويتبين إنها صارمة في أحكامها فقد كتبت بعد إطلاعها بديهةً، ونجد في الأبيات اقتباس من القرآن الكريم قائلة[2]:[مجزوء الرجز]

هوْ شيخُ سوءٍ مُزدرىً لـه شبوبُ عاصيةْ
كلا لئنْ لم ينتهِ لنسفعاً بالناصيةْ

وكانوا (يتسوَّرون، حديث النساء بعد البعول) [3] وربما حلّت الزوجة مكان الصديق الحميم لا بل مكاناً لم يرق إليه حبيبٌ من قبلُ، يقول المعتمد بن عباد[4]:[الطويل]

---

(١) نفح الطيب : جـ٦ م٣ ص٣٠ . ذكر المقّري الخبر السابق اثناء سرده لأخبار الشواعر بين حديثه عن مهجة القرطبية ونزهون الغرناطية قد يكون فيه بعض الصحة عن وقوعه ضمن عصر الطوائف، راجعنا ما كتب عن القضاة في الأندلس، ولم نتمكن من تحديد الفترة . ولم نعثر على اسم قاضي لوشة.

(٢) نفح الطيب: جـ٦ ص٣٠ -٣١.

(٣) الذخيرة: م١ ق٣ ص٣٦٠ يتسورون: أي يتمتعون بالسرادي، جمع سرية بضم السين نسبة إلي السر (أي النكاح) علي غير قياس، وهي الأمة التي يتسري بها سيدها ومالكها ويتخذها للوطء وتسمي السرية نسبة إلي السر لأنهم في الغالب كانوا يتخذون السرية في سر من زوجاتهم الحرائر أنظر دولة النساء: ص/٥٤.

(٤) ديوان المعتمد : ص٦ ، تحقيق أحمد أحمد بدوي .

فما حلَّ خِلٌّ من فُؤادِ خَلِيلِهِ مَحَلَّ إعتمادٍ من فُؤادِ مُحمدِ

ولقد حظيت الزوجة عند زَوجِها بمنزلةِ الروحِ من الجَسَدِ وَحُبها في جوانحهِ مقيم لا يَبْرَحُ يقول[1]:[الكامل]

حُبُّ اعتمادٍ في الجَوانحِ ساكنُ لا القلبُ ضاقَ به ولا هوَ راحِلُ
مَنْ شَكَّ أني هَائمٌ بكِ مغرمٌ فعلى هَواكِ لَهُ عليَّ دَلائِلُ

وربما ملكت قيادَهُ فهو كلما ابتعد عنها زاد ولهاً وشغفاً بها يقول[2]:[المتقارب]

أغائبةُ الشخصِ عن ناظري وحاضرةُ في صَميمِ الفؤادِ
عليكِ سلامٌ بقدرِ الشجو نِ ودمعِ الشؤون وقدرِ السُّهادِ
تملّكتِ منّيَ صَعبَ المرا م وصادفتِ وُدّي سَهلَ القِيادِ
مَراديَ لُقياكِ في كلِّ حينٍ فيا ليتَ أنّي أعطي مُرادي

ومن المظاهر الاجتماعيّة التي شاعت في الأندلس بناء البيوت من الفضة إرضاءً للمزوجات وتقديم الهدايا النفيسة والغالية المصنوعة من الذَهَبِ الخالص، فصاغ المعتمد بن عباد غزالاً وهلالاً من الذهب وقدّمهُ هديةً إلى السيدة بنت مجاهد العامري وابنها، وبعث اليها قائلاً[3]:[الوافر]

بعثنا بالغزالِ إلى الغزالِ وللشمس المنيرةِ بالهلالِ

ونزولاً عند رغبتها وحرصاً على محبتها، زرع سفوح الجبال التي تطل على القصر الملكي بأشجار اللّوز[4] التي تمتلئ بالزهور البيضاء في الربيع بعد ذوبان الثلوج.

---

(١) المصدر نفسه : ص٢٣.
(٢) ديوان المعتمد : ص٤٧ تحقيق محمد زهدي يكن قدم له د. سامي نصيب. ط. بيروت ١٩٧٥.
(٣) المصدر نفسه : ص٢٤. وانظر المصدر نفسه: ص٢٤ تحقيق صلاح خالص .
(٤) انظر المصدر نفسه: ص٦٢ – ٦٣ وانظر نفح الطيب: جـ٥ ص١٣٦.

أمّا ما فعله لها في يوم الطين فقد أصبح مضرباً للأمثال فكان يقال (ولا يـوم الطين) لمن ينكر فضلاً كبيراً قد أسدى إليه فيذّكر به.

ولم تكن الزوجة شريكة للحياة فحسب وإنما بدت أليفاً مؤنساً للزوج تسد عليه خُلّة الخليل . يقول الشاعر[1]:[الطويل]

سلاَمٌ سلاَمٌ أنتما الأنسُ كلهُ وإن غبتما أمُّ الربيعِ هِيَ الأُنسُ

كره الزوجات وهجاؤهن:

ومن الصورِ التي نقلها لنا الشعُر كُره الزوجات وشتمهنَّ، ولـم يقتصـر على صورة الزوجة بل تعدى إلى الإنتقاص من نسبها وعائلتها والحط من قيمة أولادهـا ، مثل ذلك قول إبن عمار في المعتمد بن عباد وزوجته اعتماد[2]:[المتقارب]

أراكِ تُـوَرّي بحـبِّ النسـاء وقد ماعهدتُك تهوى الرّجـالا
تخيَّرتها مـن بنـات الهجـا[3] ن رميكيّةً ما تساوي عقـالاً
فجـاءَت بكُـلِّ قَصـيرِ العـذا ر لئيمِ النَّحارَيْنِ عمًّا وخـالا
قصـارُ القـدودِ ولكـنَّهُم أقاموا عليها قرونـاً طِـولا

ونلمس صرخة أخرى عند[4] زوج ضاق ذرعاً بامرته ربما لسوء عشـرتها، وفحش أخلاقها فباتت ثقيلة عليه فتمني موتها.

---

(١) انظر نفح الطيب : جـ٦ ص٤٩، البيت للمعتمد بن عباد.
ديوان ابنعمار الأندلسي: ص١٢٢. تحقيق د. صلاح خالص- باريس ١٩٥٣، نسخة مكتوبـة بخط يد المحقق. مكتبة الدراسات العليا- جامعة بغداد.

(٢) ديوان ابن عمار الأندلسي: ص١٢٢. تحقيق د. صلاح خالص – باريس ١٩٥٣، نسخة مكتوبة بخط يدالمحقق. مكتبة الدراسات العليا- جامعة بغداد.

(٣) الهجان والهجين : اللّئيم ، ويطلق على العربي الذي يولد من أمه، أو من أبوه خير مـن أمّـه. والقصد هنا من العقال الديّة إشارة للقول المأثور: (لا تعقل العاقلة عمداً ولا عبداً).

(٤) العقد الفريد : جـ٦ ص١٤٤.

الإنفصال والطلاق:-

الطلاقُ مصطلحٌ قديمٌ يُرادُ به تنازل الرجلُ عن حقوقه التي على الزوجة كافة [1]. وينفرد الزوج دوماً بحق الطلاق إلاّ في حالات إستثنائية نادرة[2]. وهو نظام عام عند العرب واليهود،واليونان، والرومان وقد أباحَه الإسلام وأن ضيّقَ من دائرته[3].

وظاهرة الطلاق من المظاهر الاجتماعية التي شاعت في عصر الطوائف مع بقاء العصمة بيد الرجل، كما إن عادة الحلف بالطلاق في الأمور الهامة شاعت هي الآخرى. فقد (حلف عكاشة بن ناصر بطلاق نسائه أنه لا يقاتل مع (شنجول) [4]

وقد وجدنا رجالاً من بين الشعراء طلّقوا زوجاتهم وندموا فبعثوا شعراً فيه حرقة ولوعة وعاطفة صادقة نستخلص منه مدى تأثير الزوجات في نُفوسِ أزواجهنّ فمطلقة ابن هند الداني نراها تركت في سويدائه ذكرى جميلة يقول[5]:[الكامل]

أرتَيمه الألفاظِ غير رحيمةٍ ... الدَلُّ دلك أم نهاك نُهاكِ

هبّت ضحىً وأهابَ طيبُ نسيمها ... حتى عرفتُ بعرفها مثواكِ

فطفقتُ أنشدُهم وأنشد بعدهم ... يا دارُ جادكِ وابلٌ وسقاكِ

---

(١) المرأة في الشعر الجاهلي: ص١٧١.

(٢) المرأة عبر التاريخ : ص٢٥ – ٧٩.

(٣) الدكتور أحمد الحوفي: الحياة العربية في الشعر الجاهلي: ص٢٢٢ ط٤، القاهرة.

(٤) ابن عذارى: البيان المغرب: جـ٣ ص٣٣.

شنجول : اسمه عبد الرحمن الملقب بشنجول اسم غلب عليه من قبل أمه عبدة بنت شنجة النصراني الملك ، تذكراً منها لاسم أبيها فكانت تدعيه منذ صغره بِشَنْجول. انظر ترجمته في البيان المغرب: جـ٣ ص٣٨.

(٥) الذخيرة : م٢ ق٣ ص٨٩٦ – ٨٩٧ سماه في النفح :جـ٣ص٢٦٥ط. احسان عباس ابن هند والداني نقلا عن المصدر السابق.

وقد تقع العداوة بين الزوج ووالد زوجته فيكون سبباً في الطلاق بين الزوجين رغماً عنهما، فيظل الزوج وحيداً يكابد الشوق لزوجته وقد جسّد ذلك الشاعر حين قال[1]:[الكامل]

هلا بعثتِ ولَوْ بفَرعِ بِشامةٍ ... عند الترحّلِ أو بعُودِ أَراكِ
وقرأتِ حينَ قَربْتُ ربعك أدمعي ... معنى الجوى والشوقِ في مغناكِ
يا بنتَ معتنِق الفوارسِ بالقنا ... والبيضِ ما أنا من يَهابُ أباكِ

ويبدو حب الزوج لمطلقته صادقاً واحترامه وإجلاله لها واضحاً ليس خوفاً ولا طمعاً بالمال فهو فارسٌ من الفرسان جواد كريم يقول[2]:[الكامل]

لا قَرَّنَ أرهُبُه سواكِ وإن غدا ... شاكي السلاحِ فإنَّ قلبي شاكِ
أهواكِ حاليةً وعاطلةً وإن ... تذري الحليَّ كَفاكِ بعضُ حلاكِ
ويسرُّها ما ساءني من حبها ... كالروضُ يضحكهُ السحابُ الباكي
مهما وحلت وصار حُبّكِ قاطناً ... فبالموتُ في أوُلاكِ أوَ أخُراكِ

وربما تَرَكَ إبتعادُ الزوجينِ عن بعضهما آلاماً يدفعُ ثَمَنها الصغار لفقدهم الحنان، يقول الشاعر[3]:[الطويل]

ولمّا تدانت للوداع وقد هَفا ... بَصُبريَمنها أنّةٌ وزفيرُ
تُناشدني عَهْدَ المودَّةِ والهوى ... وفي المهدِ مبغومُ النداءِ صغيرُ

---

(١) الذخيرة : م٢ ق٣ ص٨٩٦ – ٨٩٧.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها. * ابن هدد الداني : لعله عبد الجليل بن وهبون المتوفى سنة (٤٨٣هـ) أنظر الذخيرة : م٢ ق٢ ص٨١٨.

وينقلُ لنا أبو محمد عبد الله بن سارة الشنتريني [1] المتوفى (٥١٧هـ) صورة مطلّقته، التي بدت سليطة اللّسان، ذميمة الصفات، قبيحة الأخلاق تنفثُ خبثاً كالأفعى يقول[2]:[الكامل]

أمّا الزمانُ فرقَّ لي من طلّقةٍ ... كانت تطُلُّ دمي بسيفِ نفاقِها
الذئبةُ الطلساء عند نفائها ... والحيّةُ الرقشاءُ عِند عناقِها

وللزوجة الحرّةِ مشاهد في الوفاء والإخلاص لا تُنْكَر، منها ما رواه ابن حزم الأندلسي المتوفي (٤٥٦هـ) عن زوجة يحيى بن محمد – عندما عاجلته المنية بلغَ من أسفها عليه انها باتَتَ معه في دِثار واحد ليلة مات، ولم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها[3].

ومنهن من تحمّلت أهوالَ الزمان وصرُوفُه فرأت زوجها في السجن المخيف بعد القصر المنيف وارتاعت لذلٍّ[4] وهول ما رأت وفَوّضَتْ أمرها إلى خالقها، يقول المعتمد بن عباد[5]:[مجزوء الرجز]

قالت: لقد هُنّا هُنا ... مولاي أين جاهُنا
قلت لها: إلى هُنا ... صَيرنا إلهُنا

---

(١) أبو محمد عبد الله بن محمد بن سارة البكري الشنتريني من أهل شنترين – غرب الأندلس إحترف الوراقة. كان أديباً ماهراً شاعراً ولكنه كان عاثر الجد. انظرخريدة القصر، قسم شعراء الأندلس وأدبائها: جـ٢ ص٢٥٦.

(٢) الزخيرة م٢ ق٣ ص٣٩

(٣) ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة : ص١٦ دار بوسلامة، تحقيق صلاح الدين القاسمي ط. ١٩٨٠ ، تونس.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: جـ٩ ص٢٦١ط. دار صادر بيروت ١٩٦٦.

(٥) ديوان المعتمد : ص١١ (المقدمة).

وقد أورد المقّري صوراً مختلفة للزوجة جاءت كأنها لغزٌ من ذلك قول (*)محمد العربي[1]:[السريع]

ما رجلٌ يَعجَبُ من أمرهِ ... مَنْ لم يُحقِّقْ نَفْسَهُ أمره
حَلّتْ لَهُ وُحرِّمتْ زوجة ... في اليومِ ثنتي عشَرةِ مّة

تهنئة الزواج :-

التهنئة بالزواجمن العادات المستحبّة، ولكن نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقال بالرفاء والبنين، "وكان يقول بارك الله لكَ وباركَ عليكَ وجمعَ بينكما بخير[2].

وقد هَنَأَ بعضهم قائلاً: - أقرَّ اللهُ عينَكَ ورزقَكَ ودّها وولدها وجعلَكَ الباقي بعدها، وربما طلبت الفتاةُ من ذويها التهنئة والدعوات باليمن والبركات في زواجها، نلاحظ ذلك في قول بثينة بنت المعتمد[3]:[الكامل]

وَعسىَ رميكيَة الملوكِ بفضلها ... تدعو لَنا باليُمْن وِ الإسعاد

ونستشفُ صورةَ الرابطة الزوجية المتينة، التي رَبَطَتُ الزوجين، المنبثقة من تلك التهنئة الحارة التي بعثها الزوج الشاعر إلى زوجتهِ بَعْدَ سلامتها من آلام الولادة وانجابها ولدها المُعَلّى يقول[4]:[الطويل]

---

* ولد بصقلية سنة ٤٠٣هـ وخرج عنها لما تغلب الروم عليها سنة ٤٦٤هـ قاصداً المعتمد.فدخل اشبيلية سنة ٤٦٥ وكان عالماً بالأدب ، تُوفي (٥٠٧هـ). انظر الذخيرة: م١ ق٤ ص٣٠١.

(١) ازهار الرياض : جـ٣ ص٣٠٩.

(٢) الأصفهاني: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء البلغاء: جـ١ ص٤١١ ط. دار الحياة، بيروت سنة ١٩٦١.

(٣) نفح الطيب : جـ٢ ص٢٠.

(٤) الحلة السيراء ك جـ٢ ص٦٩.

أُهنيكِ، بل نفسّي أهنيّ، فـإنني بلغتُ الذى كان اقتراحي على الدهرِ[1]
خِلاصكِ مِن أيدي المنون وغُرةٍ بَـدَتْ للمُحلِّـى مثـلَ دائـرة البـدر
فَقرّت به عيني وعينُكِ في العُلا ولا زالَ أسمى في المَحلِّ من الغَفـرِ

وبعد أن طالعنا صورة الزوجة التي مثلت جانباً من حياة الزوجات العربيـة المسلمات، المستمدة من دينهنّ، الدين الذي أبلغهنّ العزّةَ وأحاطهن بسور منيـع مـن العفّة، وغرسَ في نفوسِهنّ حُبَ الكرمِ على اعتبارهِ من الصـدقات. فَعِشـنَ عيشـةً راضية في كَنَفِ أزواجهن، فالمرأةُ التي ملكت قياد زوجها لابدّ أنها كانت على درجة عاليةٍ من الوعي الثقافي والإدراك العقلي والنضج الفكري بحيث قادت الملك والحاكم والقاضي والشاعر داخل أسرتها، لكنها يوم تولت عن العروبة والإسلام تولت عنهـا العزّة، فلم تجد غير الذّل والهوان.

---

(١) انظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

المبحث الرابع

صـــورة الإبنـــة

صور لوضع الإبنة:-

صوّرَ لنا صاحب البيان المغرب صورة حال الإبنة قبل عصر الطوائف – لقد وقعت هذه الحادثة في القَرن الثالث الهجري – من أخبار إبراهيم بن أحمد المتوفي (٢٣٧هـ). كانت أمه إذا ولدت له إبنة، أخفتها ، وربّتها، لئلا يقتلها حتى إجتمع عندها منهن ستُ عشرةَ جاريةً. كانهنَّ البدور، فقالت له يوماً وقد رأت منه رقة (ياسيدي قد ربيتُ له وصائفَ ملاحاً، وأُحبُّ أن تراهنَّ) [١]. قال : نعم فلما رآهُنَّ قالت له: – (هذي بِنتُك من فلانه ! حتى عدَّتُهُنَّ فلما خرجَ من عندأُمّه قال لخادم له أسود. (إمضي إليهنَّ وجئني برؤوسهنّ) فوقف إستعظاماً لذلك، فقال له : إمضي وإلاّ قدَّمتك قبلهنَّ ! فلما دخلَ على أُمه، كبر ذلك عليها وعظم في قلبها. وقالت له:- (راجعه) : فقال لها : لا سبيل إلى ذلك : فقَتَلَهُنَّ وأَخَذَ رُؤوسهنّ وجاء بها إليه معلقةً بشعوهن فطَرَحها بين يديه.

وينقل لنا أبو مروان ابن حيان صورة.عن الأوضاع التي أثّرت على وضع الإبنة في عصر الطوائف والقبائل المتحالفة المتعاضدة على غزو هذه البلاد. الذين (هتكوا الأستار وفتكوا بالأبكار وأستحوذَ السودانُ وسُفالُ العَسكرِ على النساءِ فكانت أخبيتُهم مملوءةً منهن) [٢].

وهذا دليلُ آخرُ على إن الإضطراباتِ السياسية ، والحروب التي شُنَّتَ أثّرتْ على النساءِ في إنتهاكُ حُرماتهن وافتضاض الأبكار من الفتيات، وربما وَضْعُها هذا أدى إلى سقوطها وبالتالي إلى تحررها وابتذالها.

وقد صور ابن حمد يس صورة للسبيّة بقوله: [٣]: [الكامل]

---

(١) البيان المغرب : جـ١ ص١٣٢ -١٣٣ تحقيق ومراجعة ج. س كولان، وإ. ليفي وبروفنسال – دار الثقافة بيروت لبنان.

(٢) المصدر نفسه : جـ٣ ص٢٣٩.

(٣) ديوان ابن حمديس: ص ١٤٥ – ١٤٦

هل تذكرُ الأعلاج سبي بناتها بظُباً جُعِلْنَ قلائدَ الأجيادِ
من كلِّ بيضاءِ الترائب غادةٍ تمشي كغُصْنِ البانةِ الميّادِ
مجذوبةٍ بذوائبٍ كأسـاودٍ عبثَت بهنّ برائنُ الآسادِ

ويُجسدُ لنا المعتمدُ بن عبادصورةَ الإبنة التي حزَّ منظرها قلبَ والدها وهي تتعرض للذلّ والهوانِ بعدَ زوالِ النعمة والجاه منها. فتألَّم والدُهُن لتقلب الزمانِ والحَدَثانِ على بَنانه. فقدرأى أن أكرمهن تَغزلَ بأجرةٍ لتسدَّ بعض خلّتهاَ (فأدخل إليها جملةَ ما أخرج غَزلٍ لبنتِ عريف شرطتهِ المنتقل إليه من دولةِغرناطة) [1]. وفي ذلك يقول :[الوافر]

أليسَ الموتُ أروع من حياةٍ يَطولُ على الشقيِّ بها الشقَاءُ
أ أرغبُ أنْ أعيشَ أرى بناتي عواري قد أضرَّبها الجَفَاءُ
خَوادمُ بنتِ من قَدْ كان أعلى مَرابَبه إذا أبدُو – النداءُ

ولمّا رأى بناتَهُ في يوم العيد في الأطمار الرثّة وقد بدت عَلَيْهُنَّ آثار الفاقة[2]. راحَ يُناجي نَفسهُ شاكياً لاضطرارِ بَناتِه إلى العملِ لتحصيلِ قُوتِهُنَ (وهُنَّ أقمار يَبْدِيْنَ عند التسايل ويُبْدِ بنَ الخشوعَ بعد التخايل والضَياعُ قد غيّرَ صُورَهُنَّ[3]. يقول : [البسيط]

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسروراً فَساءك العيدُ في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمارِ جائعةً يَغزلْنَ للناسِ لا يملكَن قِطميرا
برزَن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا

---

(١) الذخيرة : م٢ ق١ ص٢٠٣.

(٢) انظر ديوان : المعتمد : ص٤٦ – ٤٧ تحقيق د. محمد زهدي يكن.

(٣) فلائد العقيان: ص١٥ . الحلة السيراء : ص٣٦٠. نفح الطيب : جـ ٦ م٣ ص٦ .

وهذه صُورة من الصُور التي جَعلتْ بعض العربِ يكرهُون أن يكون المولودُ أنثى وفَضلُوا الذكورَ، وربّها خَوفاً من الأسرِ أو خوفاً من العار.

إن هذا الوصف للبنات لا يمكن تعميمه على وضعها في الأندلسَ خلال الفترة التي ندرسها، فكثيرٌ من النصوصِ الشعريّةِ تُؤكدُ عدَمَ التفريقِ بين الإنـاثِ والـذكور عند الولادةِ من ذلك قَولُ إبنْ عمار الأندلسي وهو يهنئُ المعتمدَ الذي وُلِد له مولودَان فلا يفرق بين الأنثى والذكر حين يقول: [1]: [البسيط]

إهنأ بِنَجْلَيْكَ من أُنثى ومن ذكرٍ لا تَعْدَم الضوءَ بين الشّمسِ والقمرِ

وعندما تَحَدَثَ المَلِكُ عبد الله بن زيرى المتوفى (٤٨٣هـ) (*) عـن أولاده قالَ: (وكانَ من نعمةِ اللهِ عَليَّ أن رَزَقني بكرَ أولادي إبنةً، لم يَزلْ قَبيلنَا كُلُّهُ يتبـرّكُ بها، ويَكرهُ أنْ يكونَ بِكْرُه إبناً ذكراً) [2].

ونستدلُ من شعرِ إبن عباد على إنَّ العلاَقةَ بين البنت وأبيها كانت قائمة على المحبةِ والمودةِ والإحترام في أكثر الأحيان. وكثيراً ما حرَصَ الأبُ على سمعةِ إبنتِه، فوردَ في الذخيرة[3] خبرٌ لأب انتقَم من أحَدِ الشُعراء بعد أن أرسلَ إليه حُلَّةً مَسـمُومةً منسوجةً بالذَّهَبِ فَلَبِسَها فتقرَّح جَسدَهُ لأنه شَبَّبَ بإبنته.

---

(١) الذخيرة : ق٤ م١ ص٢٩٨.

* عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن زيري الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطـة التـي أسسها فرع من بني زيري بعد سقوط الدولة الأموية بقرطبة ولد٤٤٧هـ اعتلـى عـرش غرناطة سنة ٤٦٩هـ. كتابه هذا وثيقة سيكولوجية من الطراز الأول . توفي سنة ٤٨٣هـ . انظر المصدر السابق.

(٢) انظر مذكرات الأمير عبد الله بن زيري : ص١٩٩ تحقيق إ. ليفي بروفنسال – دار المعارض بمصر – ١٩٥٥.

(٣) انظر الذخيرة : ق٢ م١ ص٤٤٧.

وينقل لنا أبو عامر بن شهيدصورة للمحبة والجزع في مرثية يرثي بها بُنيـة صغيرة يقول :[1]: [الرمل]

أيُّها المعتدُّ في أهل النهـى ... لا تَـذُبْ إثـرَ فقيـد ولَهـا
وإذا الأُسدُ حمت أغيالَهـا ... لم يضُرَّ الخَيسَ صرعاتُ المهـا
وغريبٌ يا ابن أقمار العُلا ... أنْ يُراغ البدرُ مـن فقـدِ السُّـها

ومن المواقف الإنسانية التي صَورّها الشعرُ – جَزعُ الأبِ – على فقده لإبنته الحسَنَة الخُلق الطيّبة السيرة. فتمنى أن تُوافيه المنيّةُ بَدَلها، وقد صوّرها إبن حمد يس ركناً مُهماً في الأسرة والمجتمع وفَقدُها يُورثُ الألم لأخوانها ولعائلتهـا فقـال يرثـي إبنته[2]:[الطويل]

فما للرّدى من مَنهلٍ لا نُسـيغُهُ ... ووارِدُهُ يَغني عن العلِّ بالنّهلِ
وانكحتُها من بَعدِ صَدْقٍ حَمِدتُهُ ... كريماً فلم تَذْمُم مُعاشرةَ البعـلِ
أساكنةَ القبرِ الذي ضَمّ قَطْـرُهُ ... على البِّرِ منها والديانةِ والفضلِ
وَخَلّفْتُ في حِجرِ الكآبةِ للبُكـا ... بناتٍ لأمّ في مُفارقـةِ الشّـمْلِ

وقد وافت المنيّةُ إبنةَ المُعتَضِد بن عباد وهي فتاة شابة في عمـر العـرائس، فرثاها الشاعرُ ابْن زيدون، باسلوبِ التأبين، وصوّرَ شَـمائلها الحَسَـنة، مـن تقـوى وخُشوعٍ وفضْل وذكاء ، مؤكداً أن مثواها سيكون جنان الخلد حيث تسقى مـن مـاء الكوثر العذب وتصحب الأتقياء السعداء والشهداء: وحَسُنَ أولئك رفيقـاً يقـول:- [3] [مجزوء الرمل]

---

(١) ديوان ابن شهيد: ص١٧٠ جمع وتحقيق يعقوب ذكي، مراجعة د. محمود علي مكـي: ط.دار الكتاب القاهرة وأنظر المصدرنفسه: ص٨٢ عني بجمسعه شارل بلا- دار الكشوف لبنـان ط الأولي ١٩٦٣.

(٢) ديوان ابن حمد يس: ص٣٦٤، وانظر المصدر نفسه: ص٣٦٦ طبعة دارصادر ١٩٦٠.

(٣) ديوان ابن زيدون : ص٧٥ – ٧٦. تحقيق كامل وخليفة.

حبَّـذا هَـذىُ غَـرُوسٍ دَفْنُهـا كـانَ الهَـداءْ
عُمْرَتْ حِيناً مـاءَ المُـزْ زْنِ شَـكْلَيْنِ سَـواءَ
ثُـمَّ ولَّـتْ فوَجَـدْنا أرَجَ[٣] المِسْـكِ تَنَـاءَ
جَمَعَتْ تَقْـوى وإخبـا[١] تـاً وفَضْـلاً وذَكـاءَ
ستُوَفَّى من جَمامِ(٢) الـ ـكَـوثَرِ العَـذْبِ رَوَاءَ
حَيْـثُ تَلْقَـى الأتْقيـا ءَ السُّـعَدَاءَ الشُّـهداء

ويقال إن المعتضد[٤] قد حَزِن بعد أن فقد إبنته الأثيرة لديه حيث كان دفنها في اليوم السابق لوفاته فأبدى لها حزناً شديداً أهل مملكته في إظهاره وحضر خواصهم شهودَ جنازتها بداخل قصره سنة إحدى وستين وأربعمائة.

وقد أورد ابن بسام في الذخيرة هذين البيتين من مرثيه لأبي الأصبغ المتوفى (٤٥٠هـ)[٥] في أبنته قائلاً[٦]:- [السريع]

إنكسفي ويحكِ يا شمسُ وازهُ بما ضُمنّت يا رمسُ
في سِّر أجفانك لي حَفلةٌ وبين أضلاعِكِ لي نفسُ

صوّرَ إبنُ حمد يس صورةَ الإبنةِ النائحةِ تصويراً رائعاً قائلاً:[٧] [الطويل]

---

(١) أرج: طيب.
(٢) الأخبات : الخشوع.
(٣) جمام الكوثر : ماء الكوثر.
(٤) انظر شعر المعتمد : ص٢٧. زهدي يكنَ وانظر الحلة السيراء: جـ٢ ص٥٢.
(٥) البيان المغرب: جـ٣ ص٢٩٧ – ٢٩٨.
(٦) الذخيرة : م١ ق٣ ص٤٠٣.
(٧) ديوان ابن حمد يس: ص١٦٥ط. دار صادر بيروت ١٩٦٠.
محمدبن أبي الاصبغ عيسى بن أبي بكر بن سعيد بن مزين بني أبا عبد الله تمت له البيعة بعد أبيه وأحبوه لأدبه وكثرة معارفه انظر ترجمته في البيان المغرب: :جـ٣ ص٢٩٧ – ٢٩٨.

عزيـــزٌ علينـــا أن بكتـــه كـــرائمُ تذيبُ قلوباً فـــي مـــدامعها وجـــدا
يُنحن مع الأشجار نـــوحَ حمـــائم تَهزُّبها الأحزانُ أغصـــانها المُلـــدا
فلوْرُدّ من كـــفِّ المنيّـــةِ هالـــكٌ بنَوحِ نبـــاتٍ كـــان أوّلَ مـــن رُدّا

يبدو دور الإبنة أقل بكثر من دور الأم والزوجة . وقد لاحظنا تميزهـــا فـــي ندب الموتى التي تمثل عن الشاعر السابق. وربما انفردت به دون بقية النساء.

خطوبة الإبنة وزواجها :-

لقد أكدَ الإسلامُ الحريةَ الكاملةَ للفتاة لاختيار الزوج، وكرَّم رسول الله صـــلى الله عليه وسلم في ابنته فاطمة (رضي) كلَّ البنات فقال: ((فإنمّا هـــي بضـــعَةٌ منـــي يُريبَني ما أرابَها ويُؤذِيني ما أذاها.)) [1] وقد جاء في بهجة المجالس: "البنون نِعَـــمٌ، والبنات حسنات ، والله عزَّ وجل يحاسب على النِعم ، ويجازي على الحسنات"[2]

وروى أيضاً عن (إعالةِ البناتِ ثوابه الدخولُ إلى الجنّةِ ورويَ عـــن النبـــي صلى الله عليه وسلم أنه قال "من عالَ ثلاثَ بناتٍ أو ثلاثَ أخواتٍ أو بنتين أو أختـــين كُنَّ لَهُ حِجاباً في النارِ فإن صبرَ عليهن حتى يزوجهنَ دخل الجنة"[3].

يبدو أن الأب كان يَفخَرُ بإبنتهِ إذا تقدَم لها خطيبٌ ولمكانتها عند أهلها وذويها يذكرُ الشعراءُ تلك الخطوبة في قصائدهم، ونرى ابن الضابط[*] المتوفي (٤٤٠هـــ) يصور قصائده مشبهاً إياها بالإبنة المخطوبة قائلاً[4]:[المتقارب]

---

(١) انظر أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: الجامع الصحيح عن كتاب النكاح: جـ٣ ص٥٨ تحقيق لود لف قرهل – طبعة ليدن – بمطبعة بريل ١٨٦٨م.

(٢) بهجة المجالس وانس المجالس: جـ١ ص٧٦١.

(٣) المصدر نفسه: جـ١ ص٧٦٦.

• ابن الضابط: عثمان بن أبي بكر بن حمودبن أحمد الصدفيّ، يكنىَ أبا عمرو ويعرف بالسـفافنس وأصله منها.

(٤) ابن بشكوال : الصلة: جـ٢ ص٣٣٧ – ٣٣٨ ترجمة (٨٧٩) تحقيق عزت العطار.

خطبت بناتي فأرسلهنْ عواطلَ من كل زينه
لتعلم أنيَ ممن يجودُ بمحضِ الوداد ويثنا ضنينه

وقد يَمنَع الوالدُ زواجَ إبنتهِ إلاّ من الكفؤ، ولحينِ توافرِ العدلِ. ويرى في ذلك صيانةً لها ، يقول الشاعر: (١) [الكامل]

بِكْرٌ بَخِلتُ على الأنام بوجهها ومنعتها من ليس من أزواجها
وصرفتها محجوبةً بصوانها مثلَ السلوكِ تصانُ في أدراجها

وكان الأندلسيون حريصين على ألاّ يزوجوا بناتهم إلاّ للأماجدمن الرجال، ضَماناً لمستقبلهن يقول ابن حمد يس: (٢)(٣) [الكامل]

أما بناتي المفرداتُ فإنها من الحُسنِ أشهرْ من بناتِ حَبيبِ
لا يَنكَحُ العذراءَ إلاّ ماجدٌ تَبقى بعصمتِهِ بقاء عسيبِ

يبدو أن الفتاة كانت ترفض الزواج من الشيخ الكبير الذي يعيش على الذكريات، قال الشاعر: (٤)[الكامل]

قَدحَ المشيبُ بمفرقيه زنادا لا يستطيعُ لناره إخمادا
أكترثَ من ذكر الفتاةِ وقلّما تُعطي لذي الذِكرِ الفتاةُ قِيادا

وعُرْف الزواج من الفتيات في الأندلس المهور ولاسيما إذا اراد الخطيب أن يرتبط بفتاة حرّة : يقول ابن دراج القسطلي: (٥) [المتقارب]

---

(١) انظر قلائد العقيات: ص٢٩٨. البيتان للحكيم أبى الفضل بن شرف. من شعراء القرن الخامس الهجري. انظرترجمته في القلائد: ص٢٩٠. طـ. دار الكتب – تقديم محمد العنابي.

(٢) ديوان ابن حمد يس : ص٦٢.

(٣) حبيب: هو أبو تمام، غالبين رباح.

(٤) انظر ديوان ابن حمد يس: ص١٤٣ -١٤٤.

(٥) ديوان ابن دراج القسطلي: ص٧٨، وأنظر الذخيرة: م١ ق١ ص٩٠-٩١.

خَطيباتِ خَطْبِ النّوى والمُهُـور مهارى عليها رحالُ الرّحيـلِ
فمـن حُـرّةٍ جُليـت بـالجلاءِ وعذراء نُصّتْ بنَصٍّ الـذّميل

الغزل العفيف بالفتاة:-

لقد امتازَ الغزلُ بالفتياتِ بالنقاءِ والعفةِ فجاء؛ بعيداً عـن الألفـاظ الجريئـةِ المكشوفة في حين تراقصت محلها الألفاظ الرقيقة، المحتشمه فجاشت قلوب الشـعراء بعاطفةٍ صادقةٍ فصوروا البنت العذراء البريئة، حيث امتزجـت صـورتها بالأنغـام الروحية السامية، يقول ابن شـهيد[1] فـي الفتـاة البكـر الحسـناء التـي تفـيض خجلاً:[مجزوء الكامل المرخل]

وصـغارُ أبكـار شـكت خجلاً فعاذتَ بالكمـائم
بكِـرَ الحسـانُ بردنهـا من كلٍّ واضحة الملاغِمْ
وضـحكن عُجبـاً فالتقـت فيها المباسُم بالمباسـم

وفي صورة الفتاة الغيداء يقول ابن حمد يس: [2] :[الطويل]

لها حمرةُ الياقوتِ في خدٍّ مُخجِـلٍ وقسـوتُهُ منهـا بقلـبٍ مُـدَلّلِ
كأني أرى هاروتَ منها مُصـوّراً على صورتي في كلِّ طرفٍ مُكَحّلِ

وخَجلُ الفتاة العذراء أصبحَ موَطناً للتشبيهِ حيـث يقـولُ إبـن حـزم فهـي كـ(العذراء الخفرة ، والخريدة الخجلة، تتراءى لعاشقها حتى بين الاستار، ثم تغيـب فيها، حَذَرُ عينٍ مُراقبة.). [3]

وخجلة الحسناء مما يضرب به المثل عند إبن خفاجة الأندلسـي فيقـول[4]: [الكامل]

---

(١) ديوان ابن شهيد : ص١٥٥. وانظر المصدر نفسه تحقيق شارل بلا : ص١٠٥ – ١٥١.
(٢) ديوان ابن حمد يس : ص٣٥٢.
(٣) طوق الحمامة : ص١٦٣.
(٤) ديوان ابن خفاجة : ص٧

حَملتْ وَحَسْبَك بهجةٌ مـن نقمـة[1] عَبـق العـروسِ وخجلـة العـذراء
خُـذها إليـكَ، وإنّهـا لَنَظِيَـرةٌ طَـرأتْ عليـكَ قليلـةُ النُظـراء[2]

وقد اقترن الحياء بالعفة والهيبة والحشمة في كثير من الفتيات الموصفات لدى الشعراء فهذا ابن حمد يس يقول:[الطويل][3]

فتاةٌ لها في النَّفسِ أصلٌ مِن الهوى وكلُّ هوىً في النفس من غيرها بِدْعُ
تُريكَ جبيناً يُخجِلُ الشمس هيبـةً وخُلقاً عميقاً في الشبابِ لـه جَمْـعُ

وقد أكد ابن عمار خجلها الذي تميزت به في أبياته الغزليَة العفيفة فقال:[الطويل] [4]

فتاةٌ عَراها الحسنُ حتى كأنهـا هي الحسنُ أو إلفٌ عليه حبيبُ
كسا الخَجلُ المعتادُ صفحةَ خَدِها رِداءً طرازه طُراز ندىً ولهيبُ

وقد استأثرت فتيات الأندلس الصغيرات بغزل كثير من الشعراء الكبار فقالوا فيهن ارقّ المعاني وأعذب العبارات من ذلك قول ابن زيدون يصف فتاة صغيرة بدت كُلّتها وسط قباب كثيرة:[الطويل] [5]

وفي الكُلّةِ الحمراءَ وسْطَ قِبابهم فَتاةٌ كمثـلِ البـدرِ قابَلَـهُ السَـعْدُ
عقيلةُ سِربٍ لا الأراكُ مـرادُه ولا قَمَنٌ منه البرَيْرُ ولا المـردُ[6]

---

(١)النقمة : الرائحة . عبق العروس : ما يعبق منها من الرائحة الطيبة.
(٢) النظيرة : الناعمة الجميلة . طرأت عليك : أتتك بغتة .
(٣) ديوان ابن حمد يس : ص٣٠٨.
(٤) ديوان ابن عمار : ص٢٤٠ -٢٤١.
(٥) ديوان ابن زيدون : ص١٠٣ تحقيق نديم مرعشلي.
(٦) العقيلة : الكريمة المخدرة. وقمنٌ : جدير.

وتبدو الفتاة صلبة قوية تجاه المحب، على الرغم من صغر سنها فعاشقها يُجلّها ويتهيب منها ويتمنى أن ينتقل إليها الدنف لتضعطفَ عليه، يقول التطيليُّ في فتاة أحبها: [1] [البسيط]

فقالت أشْكُ إليها ما لقيتَ ولا ... تَرهبُ فلن تُبلَغ الآمالُ بالرّهب
عسى هواكِ سيعديها فيعطفها ... فقد يكونُ الهوى أعدى من الجَربِ

وقال فيها : [2] [البسيط]

أصابتِ القلبَ لماّ أن رَمته ولو ... رَمَته أخرى إذنْ لا شكَ لم تُصبِ

وصُورةُ الفتاة الحرّة تبدو من صَلابتها وابتعادها عن الابتذالِ وقسوتها على الصبِّ كالحجارةِ أو اشدّ قسوة. يقول الشاعر: [3] [الطويل]

فتاةٌ إذا استعطفتَ باللّين قَلْبَها ... على الصبِّ وهو من حجر أقسى
ولا شكَ أنَّ الماءَ رطبٌ وكلما ... سقيتَ حديداً منهُ زادَ بهِ يُبس

ومثله قوله فيها: [الطويل][4]

وعذراءَ يخشاها ذكورُ أسنّةٍ ... وتثنى لجمعٍ كلّما إفترقَ الجمْعُ

ويقول : [الحفيف][5]

فعصتني الفتاةُ كيداً وكانتْ ... في الهوى من يَدى إلى الفَهمِ أطوعْ

---

(١) ديوان التطيلي: ص٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.
(٣) ديوان إبن محمد يس : ص٣٠٥.
(٤) المصدرنفسه : ص٣٥٢.
(٥) المصدر نفسه: ص٣٠٥.

وربما حملت من الثقافة والعلم وأحسنت التكلم والحديث لذا يقصر الوقت عند لقائها يقول (عبادبن محمد المعتضد على الله أبو عمرو) [1]:[الطويل]

يطولُ عليّ الدهرُ سالم ألاقِها ... ويقصرُ إن لاقيتُها أطولُ الدهرِ
وقد كمتل الغصنِ مالت به الصَّبا ... يَكادُ لفرطِ اللين يَنقدُّ في الخصرِ
ومَشٌ كما جاءت تهادي غَمامَةٌ ... ولفظٌ كما انحلَّ النظامُ عن البدرِ

ونجد عبد الرحمن بن هشام يقول في فتاة أحبّها:[الطويل] [2]

سلامٌ على مَنْ لَمْ يجد بكلامِهِ ... ولم يرتي أهلاً لردّ سلامِهِ
سلامٌ على الظبي الذي كلما رمى ... أصابَ فؤادي عامداً بسهامِهِ
وما شك طرفي أنّ طرفك مسعدي ... ومنقذُ قلبي من حبالِ غرامِهِ

ونلاحظ هذا النوع من الغزل خلي من الوقائع والأحوال التي يتعرض لها المحبون، كالهجر، والوصل، واللقاء والودائع، والتجني والاستعطاف وغير ذلك من ملابسات الحب مما يدل على أن الفتاة الحرّة كانت بعيدة عن الإبتذال.

وقد حظيت الفتاة بتشبيهات الشعراء بما لديها من جمال خلق وخلق، أجادَ إبن زيدون وَصفْ جيد الفتاة العذراء الموصوفة بالأريحيّة قائلاً:[الطويل] [3]

---

(١) الحلة السيراء: جـ٢ ص٤٩.

(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٢٩٣ – ٢٩٤.

عبد الرحمن بن هشام ، كان بالخلافة في مرتبته سنة ٤٠٠هـ بعد انقراض دولة بني حمود، وليلبث أياماً في الحكم فقد ثار عليه ابن عمه المستكفي محمد بن عبد الرحمن.

(٣) ديوان ابن زيدون : ص٩١. أريحيّة : الخلق الواسع والسماحة.

وأولِ بها في لُؤلؤٍ من حبابِهـا كجيدِ الفتاةِ الرُؤْدِ في لؤلؤِ العِقْـدِ
وإن تدعنا للأُنسِ عن أربيحيَّه فقد يأنسُ المولى إذا ارتاح بالعبدِ

ويقول المعتمد على الله (محمد أبو القاسم) فـي صـورة العـذراء المـوّردة الخدين[1]:[المنسرح]

كأنمـا ياسـمينا الغـضُّ كراكبُ في السماء تبيضُّ
والطرق الحمرُ فـي جوانبـهِ كخدٍّ عذراء مسَّـه عـضُّ

وهكذا نالت صورة العذراء إعتزاز الشعراء.

(١) البديع في وصف الربيع : ٩١. الحلة السيراء: جـ٢ ، ص٤٩. البيـان المغـرب: جـ٣ ص٢٨٥. أعمال الإعلام: ص١٥٦ -١٥٧.

المبحث الخامس

صـــورة الحبيبـــة

مما لا شك فيه أن الشاعر الأندلسي كرس جُلّ أشعارَهُ من أجل المرأة الحبيبة وكان للحرائر نصيب وللجارية نصيب أكبر. ولم يقصد الإسلام إلى كبت هذه العاطفة السامية في نفوس العرب كما أنه لم يحاول أن ينتزعها من نفوسهم. وإنما كان أمرها هنا كامرها في العواطف الأخرى، ولم يهمل الإسلام هذا الجانب.. على العكس نجده قد جعل من هذه العاطفة قوة دافعة نحو الخير العام والصلاح المشترك. (والقرآن الكريم نفسه كان يستثيرُ هذه العواطف وكان يُفيدُ منها، حين يخاطب العرب ناهياً أو داعياً آمراً أو زاجراً) [1].

ومن الطبيعي أن نجد وقوف الشاعر الأندلسي على الحبيبة بغزله ونسيبه أكثر من وقوفه على بقية النساء . فقد قيل في الحبيبة أكثر مما قيل في الأم والزوجة، في نوعه وكمه وقوة عاطفته ووجده.

وربما جاءت كثرة الأشعار في الحبيبة. لأن أبناء الطبقات الراقية كانوا من الشعراء . وكان أغلبية ملوك الطوائف والوزراء وأبنائهم من الشعراء أيضاً. فعاشوا عيشة هانئة مترفةً تحت ظلِّ المرأة التي ملكت قلوبهم .

(وأن اسواقَ النَخاسة التي كان يُباع فيها الجواري والغلمان قد شجعت هذه الحياة اللاهية التي وَجَدَ الغزلُ فيها مرتعاً سهلاً، ومن الشعراء من احبّ حبّاً صادقاً ومنهم من تمتعَ بوهم الحب ولها) [2]، فالغزلُ (كان ينساب على شفاهِ الشعراء ويدعو إليهِ كلّ ما في الأندلس من طبيعةٍ جميلةٍ وحياةٍ حضريةٍ ناعمةٍ ومجالس أنس ورخاء وخمر وغناء) [3].

---

(١) انظر الدكتور شكرى فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام: ص١٧٢ مطبعة جامعة دمشق - ١٩٥٩

(٢) انظر د. جودت الركابي : في الأدب الأندلسي: ص١٢١ مطبعة دار المعارف القاهرة ١٩٨٠.

(٣) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

وكان للتغلغل الأجنبي الاثر الواضح في المجتمع الأندلسي بحيث ظهرت المرأة أمام أعين الرجال ، فتغزلوا بها وافتتنوا بمحاسنها من بياض الوجوه وشقرة الشعر ونحافة القدود كالغصون ميساً مما أثرن في قلوب الرجال الحب والإهتمام والرعاية[1]. إن صورة المرأة المحبوبة جاءت رسماً واضحاً، وقد يعودذلك لمخالطتها الفعليّة للرجل. فأعانته على تصويرها. سواء أكان من ناحية الوصف المعنوي كلطافة الروح كما قال ابن وهبون:[الكامل] [2]

أملٌ من الآمالُ أحورُ اهيفُ خُلِعَتْ عليه لطافةُ الارواحِ

أو جمال الطباع، الذي تَمثّل بالعفة والحياء والحشمةِ والنقاء والوقار والأباء والحلم، هذه الأمور هفت إليها نفس الرجل الغربي وقدّسها وفضلها وتساوي فيها المشرقي والأندلسي في مختلف العصور وعلى مر الأزمان.

يقول الوزير الكاتب أبو عمرو[3] الباجي في نساءِ سُرُقُسْطَه، ويبدو أنهنّ شُهرنَ بالإفراط في الحياء ، وقد حَنَّ الشاعرُ لصاحِبَتِه بعدَ فِراقه لها وذَابَ شوقاً بين الأرقِ والأنين[4] فقال:[المتقارب]

فما أنس لا أنسى ذاك الحياء وذاك السناء وتلك الشيمْ
ودنيا بكم طلقةَ المجتلى ودهراً بكم واضحَ المبتسمْ
وَسَاعاتِ أنسٍ تَجُولُ النفو سُ فيها مجالَ حَمامِ الحَرَمْ

وقد صور لنا أبعادها النفسيّة تصويراً دقيقاً فالبخل بالوصلِ وقسوة القلب، ربما يدلل على أن المرأة الحرّة كانت صعبة المنال متعنتة الوصال.

---

(١) انظر طه الحاجري: صورة اندلسية : ص١٥٨.
(٢) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان: ص٥٤ط. مصر التقدم العلمية ١٩٦٤.
(٣) أبو عمرو الباجي : كان أبو عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي من بلغاء الكتاب. اختلطت رسائله برسائل أبيه. وجاء في هامش الذخيرة: ق٢ م١ ص١٨٦ -١٨٧. بأنه رحل إلى المشرق وحجّ وحجّ وولي قضاء حلب وعاد إلى الأندلس.
(٤) قلائد العقيان: ص١٠٦.

يقول ابن زيدون في ولاّدة بنت المستكفي ، والتي يستدل منه على عفتها ونقائها:[المتقارب]

وغرّكَ من عَهْدِ ولاّدةٍ سرابٌ تراءى وبَرْقٌ ومَضّى
هي الماءُ تأبى على قابضٍ ويَمْنَع زبْدَتَه مَنْ مخضْ

ويقول فيها أيضاً:[المتقارب] (١)

ألَمْ أرضَ منكِ بغيرِ الرضى وأُبدِي السرورَ بما لم أَنلْ

ونجد الشاعر في الفترة المدروسة قد اسهَب في ذكر الحبيبة وتغزل بها ووصفها وصفاً مادياً ومعنوياً، كابن دراج القسطلي المتوفي (٤٢١هـ) وابن حزم الأندلس (ت٤٥٦هـ) وابن زيدون (ت ٤٦٣هـ) والمعتمد بن عباد (ت ٤٨٨هـ) وابن اللبانه (ت ٥٠٧هـ) وربما فاتَ الشاعرُ في الأمم الأخرى في ذكر المرأة والتملي بأوصافها. (وقدَ بَدَت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية فشاع عندهم الغزل النصراني وذكر الكنائس والقساوسة والصلبان كغزل بن الحداد المتوفى/ ٤٨٠هـ) في نُويرة النصرانية، كما شاعَ عندهم التشبيب بالشَعْر الأشقر والعيون الزرق لكثرة ما انوا يصيبون من بني فرنجة الشمال وهم شقر في الغالب) (٢) وعثرنا في الذخيرة على أبيات تُشيرإلى حبِّ إبن الحداد لنويرة: قائلاً: (٣). [الكامل]

وَرَأَتْ جفوني من نويرة كاسمها ناراً تُضِلُّ وكلُّ نارٍترشدُ

---

(١) المصدر نفسه: ص١٨١ – تحقيق نديم مرعشلي.

(٢) أنظر د. جودت الركابي: في الأدب الأندلسي: ص١٢٢ط، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠ وانظر عمر فروخ: تاريخ الأدب الأندلسي : جـ٤ ص٤٠٤. طـ الأولى ١٩٨١ دار العلم للملايين وكراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس : ص٥١ ترجمة د. محمد منير مرسي تقديم أحمد هيكل.

(٣) الذخيرة: ق١ /٢ ص٧٠٤.

نويرة كنية لجميلة . صاحبة ابن الحداد الوادي آشي.

والماءُ أنتِ ومـا يصُـح لقـابضٍ والنارُ أنتِ وفي الحشا تتوقـدُ

أطلت علينا الحبيبةُ إمرأةً حقيقية. فقد عبّر الشاعر بها عن معانـاة صـادقة، وربما التقى بها فعلاً فصوّر لنا الواقع الصادق لحياتها، ولم يَنطقْ عن خيـال، كمـا عبّرَ الشاعرُ المشرقي نتيجة الحرمان، وربما وَصفَ إمرأة من خياله لم يَرَهـا ولـم يلتقِ بها بسبب التقاليد والعادات التي حجبتها عنه أولاً، وبسبب ما شـاعَ فـي بيئتـه المحافظة من مفاهيم حول المرأة جعلت التعرف إليها أمر غير مقبول اجتماعيا ولهذا فإن المرأة التي ظهرت في شعرهم من نسج خيالهم واستعاروا لهـا أوصـافاً هـي الأوصاف التي تغني بها الشاعر العربي القديم.

أمّا (الحبيبة عند الشاعر الأندلسي فقد بدت مهيمنة على حياة الشـاعر ولـم نجدها جارية أو ساقية خمرة بل ألفيناها شريكة لحياته يناغيها بألطف وأرقّ المعـاني والألفاظ مصوراً إياها الإنسانة المتمثلة بها كل القيم الإنسانية[1] ، (كما تبدو الصـبغة الواقعية على شعر الحُب الأندلسي) [2].

التذلّل للحبيبة :-

تبدو ظاهرة التذلّل والخضوع للمحبوب قد إمتدت إلى شعراء عصر الطوائف فورد بمختلف ألوانه عند العشاق الأندلسيين، يقول ابن حزم[3] :[الكامل]

ليسَ التذلّل في الهوى يُستنكرُ فالحبّ فيه ، يَخضعُ المُستكبرُ

كما صورت لنا اشعارهم حالة المحب الذليل، فالحرُّ يُصـبح عبـداً إذا وقـع بمرض الدنف وربما يلتذُّ بسقامه، وقد صوّر لنا الشاعرُ ابن عمـار المتـوفي سـنة (٤٧٧هـ) حالة من حالات الحب يقول[4]:[الكامل]

---

(١) ليفي بروفنسال: سلسلة محاضرات عامة في الأدب العربي: ص١٤ طـ. القاهرة ١٩٥١.
(٢) المصدر نفسه: ص٤٩.
(٣) طوق الحمامة : ص٨٤.
(٤) ديوان ابن عمار: ص٣٩ – وانظر د. صلاح خالص. محمد بن عمار دراسة أدبيـة: ص٦٣. مطبعة الهدى – بغداد – ١٩٥٧.

قـــالوا أضَرَبِكَ الهـــوى فأجَبتُهُـــمُ

يا حبـــذاهُ وحَبـــذا أضـــرارُهُ

ونجد الآخر قد اعترف بذلّه قائلاً : [الخفيف][1]

كلُّ عَتْبٍ سمعتُ منها ومنّي فهْوَ منها ذلٌّ ومنّيَ ذُلُّ

أما ابن زيدون فيرى أنّ ذلّهُ صارَ مضرباً للأمثال[2] :[الرمل]

أنا راضٍ بالذي يرضِ به صارَ ذُلّي في هواهُ مَثَلاً

ونراهُ يقول في الغَرضَ نفسه[3]:[الكامل]

كنتِ المنى فأذقْتِني غُصَصَ الأذى ياليتني ما فُهتُ فيكِ بـــ(ليتـــي)

أمّا يوسف بن هارون المتوفي (٤٠٣هـــ) ، فلذّلّتـــهِ يُظَلّـــمْ ويُقَـــدم إعتـــذارَهُ قائلاً[4]:[البسيط]

ظلمتني ثم إني جئتُ معتذراً يكفيكِ أنّي مَظلومُ ومعتذرُ

ويبدو أن التذلل للحبيبة أصبح سُنةً في الأندلس أو قانوناً سار عليه الســـابقون واللاحقون من العشاق، يقول ابن حزم[5]:[الكامل]

لا تعجبوا من ذلتي في حالة قد ذُلَّ فيها قِبلَي المستنصـــرُ

ليس الحبيبُ مماثلاً ومكافيـــاً فيكون صبرُك ذلةً إذ تَصبرُ

---

(١) ديوان ابن حمد يس : ص٣٥٢.

(٢) الديوان: ص١٦٥ – نديم مرعشلي.

(٣) ديوان ابن زيدون : ص٢١٩.

(٤) شعر الرمادي يوسف بن هارون: ص٦٩. جمعه ماهر زهير جـــرار-طـــ الأولـــى ١٩٨٠ ببيروت.

(٥) طوق الحمامة: ص٨٤ ، المستنصر اشارة إلى الخليفة الحكم الثاني ابن عبد الرحمن الناصـــر وهيمامه بـــ(صبح) أم هشام المؤيد ، وقد توفي الحكم المستنصر سنة (٣٦٦هـــ).

ويصوّر لنا شاعر آخر غبن حقوقه ، فيكثر من التضـــرع والـــدعاء للخـــالق ليرقَ قَلبُ الحبيبِ وينصفه قائلاً:[المنسرح] [1] .

مَنْ لا أُســمّي ولا أَبُــوحُ بــه ... أَصلَحَ بيني وبينَ من أهــوى
ولي حقوقٌ في الحُبِّ ظــاهرةٌ ... لكنَّ إلفــي يُعــدُّها دعــوى
يا ربِّ إنَّ الرّسولَ أحْسَنَ بِــيْ ... يارِبِّ فاحفظْني من الأَســوا

فلابدّ لنا أن نَقِفَ وقفةً قصيرةً أمامَ هذه الأشعار لندركَ الظــاهرةَ الحضــارية التي استطاعت أن تَفْرِضَ أنوثتها على المُلوكِ والوزراءِ وتتحدى حُبَّهُم وتَــذَلّهم مــع الإصرار.

الصورة المادية للحبيبة :-

لقد صَوّر الشاعر في غزله المادي محاسن المرأة، ومــوطن الإفتتــان بهــا والحنين إليها والجريِ وراءها.فتحدث عن سهام الألحاظ[2]. وطيب الأنفاس وســلافة الرضاب وجمال الثغور[3]. ونرجس العيون[4]، ومَيَسّ القدود[5]. ملتحفــاً بالتــأثير و

---

(١) ديوان ابن شهيد : ص١٧١ جمع وتحقيق يعقوب زكي مراجعة.
الرّمادي : يوسف بن هارون يكني بأبي عمر شاعر من مقدمي شعراء الحكم المستنصر ومن مداح المنصور بن أبي عامر، أكثر من وصف الطبيعة والغلمان وأدوات الحضارة أنظر شعر الرمادي (يوسف بن هارون): ص١٦-٤١ جمعة وقدم له ماهر زهير جرار – طـ الأولـى ١٩٨٠ م.

(٢) ديوان ابن زيدون: ص٨٩ تحقيق كامل وخليفة. ديوان ابن حمد يـس: ص٤٨٧ شـعر ابـن اللبانة: ص٥٤. الذخيرة: م١ ق٢ ص٣٨١ فصل – ابن عمار – الحلة السيراء: جـ٢ ص٢٥ – ترجمة المائة الخامسة. ابن عبدون: مجلة الأديبة : ص٧٣ عـدد ٢ سـنة ٧٩ طـ دار الجمورية.

(٣) ديوان ابنزيدون : ص٢٠٢. ديوان ابن حمد يس: ص٢٨٨ ، ص ٣١٥ شـعر ابـن اللبانـه: ص٥٣. الحلة السيراء : جـ٢ ص١٦.

(٤) شعر الرمادي : ص٦٨ – ٧٨. طوق الحمامة: ص١١٢ . شعر إبن اللّبانة ص٨١. ديوان ابن عمار : ص٢٥٢. قلائد العقيان: ص٨٤.

(٥) ديوان ابن زيدون : ص٢٧٧. تحقيق كامل وخليفة. ديوان ابن عمار : ص٦٦ ديوان ابن حمد يس: ص٤٨٧. ديوان ابن خفاجة: ص٢٢٣-٢٨٠.

الإنفعال متفاوتاً على حسب موقف الوصال. فجاء شَعْره مترقرقاً بما يَختَلِجُ في قلبه من عواطف الحبِّ الجسدي والإعجابِ الحسّي، فتَفَنَنَ في وصف المرأة الحبيبة، كما وصفَ خلواتَهُ معها، خيالاً وحقيقة.

ومن الشعراء الذين وصفوا لقاء الحبيبة طيفاً، فرسم لنا زيارته لها وهي في مضجعها فتمتع برونق ضمها. ووصف ما دارَ بينهما من حديث على طريقة المجبين قائلاً[1]:[البسيط]

يا رُبَّ ربة خِدرٍ زرتُ مضجعَهَا ... (....) والدجى الغربيب معتبر
ضممتُها ضمَّ مشتاقٍ إلى كبدي ... حتى توهمتُ أنّ الحليَ ينكسرُ
تعجبتْ من ضنى جسمي فقلت لها: ... على هواكِ فقالت:عنديَ الخبرُ

وقال في قطعة أخرى. يصور زيارتها له في طيفه فيقضي وَطَرَهُ من لثمِ ثَغرها واستنشاق عطرها[2]. [السريع]

وازرني طيفُ خيالٍ لهمْ ... فألحفَ اللّيلُ رداءَ الصباحْ
سقانيَ الخمرة من ريقهِ ... وقام لي من بَرَدٍ بالأقاحْ
يا طاعنَ الخيلِ غداة الوغي ... طَاعِنُكَ النهدُ فألقِ السلاحْ

ويواصل أبو بكر ابن اللّبانة حبيبته حقيقة .. مبدياً في غزله المادي؛الصدق في التصوير لأحاسيسه وإنفعالاته تجاه المحبوبة. ربما لكرمها وجودها. يقول:[الكامل] [3]

جادتْ عليَّ بوصلها فكأنه ... جدوى يديهِ على المُقِلِ المُقترِ
ولَثمتُ فاها فاعتقدتُ بأنني ... من كفّهِ سَوغتُ لثَم الخُنْصرِ

---

(١) شعر ابن اللّبانة : ص٤٨.
(٢) المصدر نفسه : ص٣٠ -٣١.
(٣) ص١٠٤

سمحتْ بتعنيفي فقلتُ صنيعةٌ سمحتْ علاهُ بها فلمْ تتعذرِ
نَهدٌ كقسوةِ قلبهِ في معركٍ وحشاً كلينِ طباعةٍ في محضرِ

وقد جعل ابن حزم للوصل الخفي نشوه ولذة (أن للوصل المختلس الذي يُخاتَلُ به الرقباءُ، ويُتَحَفَّظُ به من الحُضرِ. مثلَ الضحكِ المستورِ .. والنحنحة. وجولان الأيدي. والضغطِ بالأجنابِ. والقرصِ باليدِ والرجلِ. لَمْوقعاً من النفس شهياً) وفيه يقول:[الخفيف] (١)

إنّ للوصولِ الخفيّ محلاً ليسَ للوصل المكينِ الجلّي
لذةً أمزجُها بارتقابٍ كمسيرٍ في خلالِ النقي

إن النظرية المادية للحبيبة صوّرها أغلب الشعراء بلمسة جسد. ولثمة فم ، وضمّه خصر. ونظرة عين. فيروي ما في قلبه من نَبَضاتِ حُبٍ ويشفي غليلهُ ومنهم من صوّرها لنا تأجج النيران واضطرامها في القلب كالنار المستعرة، ومنهم من صوّرها نفثات وزفرات يبثّها قلبه الشاكي. ومن المعروف أن صاحب النظرة الماديّة في الحبِّ يجدُ اللّوعةَ في قلبهِ من ذلكَ الحبِّ، ويبدو ان الرجلَ في غزله المادي بالمرأة يصورها صورةً منتزعة، مما تقع عليه عينُهُ من جمالٍ مادي وما يسبغُهُ عليها من عالم الطبيعةِ من تشبيهات وأوصاف حسّية منبعثة من شهوته الدائمة في القلب.

ويقول : عيسى سابا عن العرب إنهم (لم يعرفوا من الغزل بمعناه ولم يتذوقوه إلاّ وفي القلب نزوةٌ. وهو أمرٌ طبيعي، ولولا هذه النزوة ما عُرِفَ فَنُّ الغزلِ ولَما وُجد بطريقِ الشوقِ والإشتهاءِ، فكانَ جَسَدياً ثم تعالى روحياً وتَرفعَ فكرياً) (٢).

ونَجِدَ هُنيْدَ أوجعت قلب عاشقها فأرسل أنفاسهُ إليها ممتزجةً بدموعهِ المنهمرة حُزناً لفراقها، ويبدو أنها كانت أمنيته، لذا اصبَح دائم التفكير بها يقول(٣):[البسيط]

---

(١) طوق الحمامة: ص١١٧.
(٢) عيى ميخائيل سابا: غزل النساء: ص٢٤ – طـ ١٠بيروت ١٩٥٣ – دار العلم للملايين.
(٣) شعر ابن خفاجة : ص١٥٨ تحقيق وشرح كرم البستاني – مكتبة صادر بيروت مطبعة المناهل : ١٩٥١.

يا مُنيةَ النَّفسِ حسبي ، من تشكّيكِ ... أني أُصابُ وكَفُّ الدهرِ تَرميكِ
هُنَيْدَ أوجعْتِ قَلباً قد أقَمْتِ بهِ ... ما بالُ طَرفي، وما يُدريكِ، يَبكيكِ
فإنّ كلَّ نَسيمٍ، خاضَهُ أرَجُ ... رَسولُ شَوقٍ، أتى عنّي يُحيِّيكِ

وكلما قَرُبَ دَنوّ الحبيب من حبيبته إزداد شوقاً لوصالها ولوعة بهما وفيها يقول ابن حَزم[1] (ولقد ضَمني مجلسٌ مع بعض من كنتُ أُحب. فلم أُجِل خاطري في فن من فنون الوصل. إلا وجدْتُهُ مقَصّراً عن مرادي، وغيرَ شافٍ وَجْدي. ولا قاضي أقلَّ لُبانة من لباناتي[2] . ووجدتُني كلما ازددتُ دنوّا ازددتُ وُلوُّعاً. وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي).

وينقل لنا صورة لفتاة جارية لا يستطيع العيش بدونها وخلوته معها كانت في جُنح الظلام قائلاً:[الطويل] [3]

خلوتُ بها والرّاحُ ثالثةٌ لها ... وجُنحُ ظلامِ اللّيلِ قدْ مدَّ ما انبلجْ
فتاةُ عدمتُ العيشَ إلاّ بقُربها ... فَهَلْ في إبتغاءِ العيشِ ويحك من حَرَجْ

ولأبن حزم قطع كثيرة في التغزل بالجواري والتغني بصفاتهنّ والشوق إليهنّ ووصف أجسامهنّ بعبارات رشيقة والفاظ أنيقة، وإنسيابيّة لينّة ودقيقة. في كتابة طوق الحمامة .. يقول[4] في وصف شوقه:[الطويل]

سقى اللهُ أياماً مضتْ ولياليا ... تُحاكي لنا النّيلوفرَ[5] الغضَّ في النشْرِ
لهونا بها في غمرةٍ وتألفٍ ... تَمُرُّ فلا نذري وتأتي فلا ندري

---

(١) طوق الحمامة : ص١١٢ – ١١٣.

(٢) لبانة جمعها لبانات: الحاجة التي تتعلق بها همة الإنسان.

(٣) طوق الحمامة : ص٤١.

(٤) المصدر نفسه : ص١٣٢.

(٥) النيلوفر : (بكسر النون) نبات مائي ذو ورق كبير مستدير. يعوم على صفحة الماء ومنه أنواع تنبت في الأنهار والمناقع، وأنواع تزرع في الأحواض لجمال أوراقها وزهورها.

فأعقبنـــا منـــه زمـــانٌ كأنـــهُ ولا شك، حُسنُ العقد أُعقـــبَ بالغـــدرِ

ويقول في حبه لجارية: [1] [المتقارب]

جَرى الحبُّ منّي مَجرى النفَسْ وأعْطَيتُ عيني عنانَ الفَـرَسْ
فَقَبلْتُـــه طَالِبـــاً راحـــةً فَزادَ أَلَـيْلاً بقلبـي اليَـبَسْ[2]
وكان فـؤادي كنَبـتِ هَشـيمٍ يبيسٍ رَمـى فيـه رام قَـبَسْ

ونجد ابن عبدون[3] يجسدُّ الحبَّ من نظرةٍ واحدة تلك النظرة جَرحت فـؤاده فأردته قتيلاً : وقد قيل النظرة الأولى لك والثانية عليك، فشَعرنا بنظرته الحسّية قائلاً: [الطويل]

وما أَنسَ بين النَهرِ والقصرِ وقفة نَشَدْتُ بها ما ضلَّ من شاردِ الحـبِ
رَمَيْتُ بلحظي رميةً سـنحتْ بـهِ فلـم أنتبـهْ إلا ومجروحُهـا قلبـي

أمّا الرّمادي فكان أكثر الشعراء تغزلاً ووصفا للّقاءات الماديّة. علماً أنه قـد أشتهر بحبه لجارية تدعى خلّوه (أخذت بمجامِع قلبهِ وتخلّلَ حُبّها جَميع أعضائه) [4]. ولم يظفر بها. فنجدهُ يبعَثُ قطعاً غزليّة مصوراً جَسَدَ الحبيبة وجمال ساقيها وبيـاض معصمها[5] قائلاً:[الطويل]

وأقربُ عهدٍ رَشَفةٌ بَلّتْ الحَشَـا فعادَ شِـتاءٌ بـارداً وهـو صَـيِّفُ
وكانت على خَوفٍ فَولّتْ كأنّهـا من الرَدفِ في قيدِ الخلاخلِ ترشفُ
بمعصَمٍ كـافورِ بَياضـاً، تكنّـهُ بغالِيـةٍ مـن صِـيغَةٍ وتَطـرفُ

---

(١) طوق الحمامة: ص١١١.

(٢) أَلَيْلاً: بتشديد (اللام) المريض ليلاً

(٣) ابن عبدون: مجلة الاديبة: ص٧٣ عدد ٢ لسنة ٦٩.

(٤) شعر الرّمادي : ص٢٥ وانظر أخباره معها في جذوة المقتبس ص٣٤٧.

(٥) شعر الرمادي: ص٢٦.

أما ابنُ زيدون فقد وصَفَ المحبوبة في إطارٍ غرامي واقعي وظل تجربةٍ صادقةٍ فجاءت صورُتها مثالاً للغزَلِ المادي بالحرائرِ حيثُ يتذكر الوصال الرائع في تلكَ الروضةِ الغنّاء قائلاً:[البسيط][1]

أذكَرتني سالفَ العَيشِ الذي طَابا ... يا لَيتَ غائبَ ذاكَ العهدِ قد آبا
إذ نحنُ في رَوضةٍ للوصل نَعَّمها ... من السُّرورِ غمامُ فوقها صابا
كم نظرةٍ لك في عيني علِمْتَ بها ... يومَ الزيارةِ – أن القَلْب قد ذابا

وقد بعث الشاعر لوعته الصادقة لفراق هذه الحبيبة التي لا شبيه لها في حسنها وجمالها فتغزل بـ(فيها) ورضا بها – ويخصرها المتناهي في الصغر قائلاً:[البسيط] [2]

كيف إصطباري وفي كانون فارقني ... قلبي وها نحنُ في أعقابِ تشرينِ
شخصٌ يُذكرّني فاهُ وغُرَّتُه ... شمسَ النّهارِ وأنفاسَ الرّياحينَ
لئن عطشتُ إلى ذاك الرّضاب فكم ... قد باتَ منهُ يُسقّيني فيُرْويني

وقال يصف دقة خصر المحبوب ونحوله:[البسيط] [3]

أو حلَّ عقْدَ[4] عَزائي نأيهُ فَلكم ... حلّلتُ عن خصرهِ عقدَ الثّمانينِ[5]

ويعلق محقق الديوان كامل الكيلاني على هذا الخصر الذي وصفه ابن زيدون، (يدّق في الوهم ، ويَلْطفُ في الخيال والحس، إلى حدّ أنّا لا نعثرُ له على

---

(١) ديوان ابن زيدون: ص٢٧٦. تحقيق كامل وخليفة.

(٢) ديوان ابن زيدون ص١٠٩.

(٣) المصدر نفسه : والصفحة نفسها.

(٤) عقد عزائي: العقد ضد الحلّ، والعزاء: الصبر.

(٥) عقد الثمانين: أحد عقد الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والإشارة إلى عقد الثمانين تكون ببسطالإبهام والسبابة معاً متلاصقين بلا خرجة ظاهرة بينهما.

شبيه ومثيل حتى ولا في خصورِ الناحلات الرشيقات من بناتِ أوربا وباريس في العصر الحاضر عصر التفنن في الرّشاقةِ، ودقة الخصور والإفراط في تضييق عقد النطاق. (١)

لقد ألهبت ولاّدةُ شاعريةَ (بحتري المغرب كما أطلق عليه نكلسن) (٢) فأصدر أروع القصائد واصفاً فيها الجوانب الروحية والماديّة. فنشاهد لوحة أخرى، وقد تغزل بفتور عينيها ورشاقتها وجمال قدها وهَضْم خَصرِها، وأناقتها فجاءت أشبه بظبي رِيع لإنفرادهِ عن سائرِ الظباء قائلاً:[الطويل] (٣)

أناةٌ(٤) عليها من سنا البدرِ مَبْسمُ ... وفيها من الغُصنِ النضيرِ شمائلُ
يجولُ وشاحاها على خيزُرانةٍ ... وتُشْرَقُ في (موشَّيتين) الخلاخلُ
وليلةٍ وافتنا الكتيبُ لمَوْعدٍ ... كما ريعَ وسنانُ العشياتِ خاذلُ(٥)
تهادي إنسيابَ الأيمِ يعفو إثارَها ... من الوَشْي مرقومُ العطافينِ ذائلُ(٦)

---

(١) ديان ابن زيدون: انظر هامش ص١٠٩ – ١١٠.

(١)Nicholsons. R.A: Aliteray History of the Arabs the University Press, combridge ١٩٥٦, P.٤١٩.

نقلا عن شعر المعتمد : ص٨٠ . زهدي يكن.

(٣) ديوان ابن زيدون : ص١٠٠.

(٤) الإناة: المرأة التي فيها فتور عن القيام.

(٥) ريع: فزع لا مر مفاجئ. والخاذل: من خذلت الظبية فهي خاذل تخلفت عن صواحبها وانفردت.

(٦) الأيم والأين: الحيّة.

العطاف: ثوب كالرداء والطيلسا. والمرقوم ذو الوشي والنقش أو المكتوب عليه رقم التاجر . ذائل : ذو الذيل . أو هو مشي سريع خفيف وبه سمي الذئب ذؤاله.

فهذه أحوال الحبيبة وصورتها التي استقرت في نفوسَ الشعراء ، ربما تاثرت أو هي أقرب إلى صورة المرأة العربية المشرقية...

الصورة المعنوية للحبيبة :-

صوّر الشعراءُ الحبيبة في اشعارهم وكأنها من طبقة راقية، ذات جاه ونسب، وبدت منعمة مرفهة مخدومة، يقول ابو بكر الداني المشهور بـابن اللّبانـة المتـوفى (٥٠٧هـ) : [السريع][1]

يَخْـدمُها كـلٌّ كمـيٌّ لـه وجـهُ حبـيٌّ وفـؤادٌ وقـاحْ
مُرْهَفَةٌ نـارٌ وفضفاضُـهُ ماءٌ، وبين الحالتين أصـطلاحْ

وطبقتها التي تميزت في المجد والشرف، والحسب والنسب، والسلطان والجاه والمُلك. ولحياة الرفاه والعزّ التي أحيتها الحبيبة . يتصور الشاعر أنهُ غيُر كفؤٍ لهـا، ولكنهُ تكافأ معها في المودة، قائلاً: [2] [البسيط] .

ماضرَّ أنْ لم نكُن أكفاءه شـرفاً وفي المودَّةِ كافٍ من تكافينـا

وتبدو صاحبةُ ابن شُهيد رقيقةَ الخـاطر لكونهـا إمـرأةٌ منعمـةٌ يقـول:[3] [المتقارب]

كتبْـتُ لهـا أننـي عاشـقٌ علـى مُهـرقِ الكـتمِ بالنـأظرِ
منعّمـةٌ نطقـتْ بـالجفونِ فـدلّتْ علـى رقـةِ الخـاطرِ

ومن الصفات المعنوية التي تناولها الشعراء ونعتوا بها الحبيبة الصد والهجر والجفاء. ربما لكونها حَرة والحَرة صعبة المنال.

---

(١) انظر د. محمد مجيد السعيد : شعر ابن اللبانة الداني : ص٣٢. طـ١٩٧٧م.
(٢) ديوان ابن زيدون : ص٧ كامل وخليفة.
(٣) ديوان ابن شهيد : ص١٦٠.

ويبدو الهجر صفة معنوية ملازمة للحبيبة العذراء يقول ابن حمديس[1]:

[البسيط]

إلى متى منكُم هجرى وإقصائي ... ويْلي وجدتُ أحبّائي كأعدائي
أعيا عليّ، وعذري لاخفاء به ... رياضة الصعبِ من أخلاقِ عذراءِ

ومثله قوله في الصد وقلّة الوفاء، وقد جاء التشبيه بصيغة حقيقية واقعية لطيفة:[المنسرح] [2]

لم أسلُ عنه وقد سلا عنّي ... فالذنبُ منه وضدّهُ منّي
فاليومُ ينفرُ من ملاحظتي ... كَنفارِ إنسّيُ من الجِنّ

وقد يقتنع الحبيب بالطيف مكتفياً بالذكر إذا كانت الحبيبة صعبة المنال قائلاً: [البسيط][3]

أولي وفاءً وإن لم تَبذُلي صِلَةً ... فالطيّفُ يُقنعنا والذِّكر يكفينا

ومن الصفات المعنوية التي اتسمت بها الحبيبة الخَجل والرزانة يقول ابن زيدون:[البسيط] [4]

عيناه مطلوبةُ في ثأرِ من قتلتْ ... فلستَ تلقاه إلاّ خائفاً وجلا

وكثيراً ما أدانَ الشاعر الحبيبة لقلة الوفاء ، ونكث العهد يقول ابن زيدون:[5] [الطويل]

أَجِدُّ وَمنْ أهواهُ في الحبِّ عابثُ ... وأُوفي لَهُ بالعَهدِ ، إذ هُوَ ناكِثُ

---

(١) الديوان : ص١

(٢) المصدر نفسه : ص٤٩٢.

(٣) ديوان ابن زيدون : ص٩٥ تحقيق نديم مرعشلي.

(٤) نور الدين بن سعيد: المرقصات والمطربات: ص٢٢٤ طـ - ٢ - القاهرة ١٩٧٣.

(٥) ديوان ابن زيدون : ص٧٠ نديم مرعشلي.

حبيبٌ نأى عَنّي مع القرب والاسى ... مقيمٌ لهُ في مُضمَرِ القلب ماكِث

ويصوّر لنا ابنُ حمديس الحبيبة التي لا تُحافظ على المواعيد قائلاً: [الرمل][1]

غادةٌ أن نِيطَ فيها مَوعِدٌ ... بغدٍ فَرَّ إلى ما بعد غدْ

وصور لنا المعتضد المتوفي (٤٦١هـ) الحبيبة الخالية البال ، التي تنام ملء جفنيها قائلاً: [2] [المتقارب]

تَنامُ ومُذْ نفُها يَسْهرُ ... وتَصْبُرُ عنْهُ ولا يَصبرُ

وقد رسم لنا ابن زيدون صورة معنوية جميلة للحبيبة الأندلسية التي ملأت عليه حياته وسدت كلّ فراغة :[البسيط] [3]

يا مَنْ غدوتُ به في الناس مُشتهراً ... قلبي عَلَيكِ يُقاسي الَتْهَم والفكرا
إنْ غِبتَ لم ألْقَ إنساناً يُؤَنسُني ... وإن حضرت فكلُّ الناسِ قد حضرا

ولعل من المميزات المعنوية العظيمة التي اتسمت بها المرأة الحبيبة هي تشجيع الرجل على السعْي والجد والمثابرة يقول الحكيم أبو الصلت امية المتوفى (٥٢٩هـ) [4] [الطويل]

وقائلةٍ سر وابتغ الرزق طائفاً ... فانكَ فيما لا يُفيدُ لطائفُ[5]
فقلت: ذريني ، رُبَّ ساعٍ مخيبٍ ... ولله في كلّ الأمور لطائفُ

---

(١) الديوان : ص١٣٨.
(٢) الحلة السيراء : جـ٢ ص٤٨. ولنظر ديوان ابن زيدون: ص٣٧٤ كامل وخليفة.
(٣) ديوان ابن زيدون : ٢٦٧ كامل وخليفة.
(٤) المعتمد بن عباد : ثورة نظم السلطان وشاعريته ، عن ابيه سنة (٤٦٦هـ) توسع رقعتها حتى اصبح أعظم أمير من ملوك الطوائف، وكان قاسياً غليظ القلب، ولكنه كان شاعرا يجزل العطاء ويكرم الشعراء توفي ٤٦١هـ.
(٥) الديوان: ص١٢٤.

وقد صور الشعراء الحبيبة بأنها العلقُ النفيس ، الأعظمُ رفعةً والأكثر سناءً. قال ابن زيدون:[البسيط] [1]

يا علقيَ الأخطرَ الأسنى الحبيب إلى ... نفسي إذا ما اقتني الأحبابُ إعلاقا
فالآن أحمدُ ما كنا لعهدكمُ ... سلوتُمُ وبقينا نحنُ عشاقاً

وقد يسعد المحب باسم الحبيبة وربما اتخذه لقباً لنفسه وصفةَ بين الملوك وقدجعله لقبه الرّسمي في تاريخ[2] بني عباد. يقول المعتمد بن عباد[3]:-

دَسَسْتُ إسمك الحُلْو في طيِّهِ ... وألفتُ منه حروَف إعتماد

سجلَ الشاعر للحبيبة صورة صادقة ومتخيلة، وفي الحالتين صورها إنسانة لا يستطيع أن يحيا بغيرها ولا يجد السعادة بدونها فُصوّر بقربها الجنة والسعادة والرضا والنعيم وبفراقها الألم والبؤس والحرمان والشقاء والعذاب، وقد صوّرها شريكة الحياة تمنح الرجل العطاء المعنوي كما تمنحه الدفء والإطمئنان، ذلك لأنها جمعت بين جمال الخلق والخُلق، جمعت بين الجمال والذكاء، وحلاوة النادرة والظرف لذا نجدها حاربت بسيفين مرهفين فملكت قلب معشوقها واستاثرت بنهاه. إنّ أكثر ملوك الطوائف ووزرائهم كانوا شعراء. وكان حبهم لنساء على مستوى رفيع في الجمال والبراعة والبيان. والشاعر الذي يهوى فتاة أديبة ينعُم مرتين؛ بنعم الحب، وبالشعرَ ويَعْرفُ مسبقاً أنهُ يوجه أنغامهُ إلى أذُنٍ تَسمْع وقَلب يتذَوّق. فجاءت صورة الحبيبة تحفةً إنسانية صادقة . ولكنها نبعت من قلب المحب ومن عقله لذا ظلت خالدة على مرّ العصور.

---

(١) ديوان ابن زيدون : ص١٥٣.
(٢) الاخطر: الرفيع ، الأسنى : الأكثر إنارة
(٣) الحلة السيراء: ص٣٥٨.
ديوان المعتمد بن عباد : ص٨ تحقيق أحمد أحمد بدوي ، حامد عبد المجيد.

المبحث السادس

صـــورة الجاريـــة

الأمـــــة:

والأمةُ في المجتمع الأندلسي هي المملوكةُ خلافَ الحُرَّة، وفي التهذيب المرأة ذات العبودية (المستعَبدة) وجمع الأمة أموات وإماء وآم وإمـوان وأمـوانُ ويجـوز أماتُ.[1][2]

والأُماء: الجواري اللائي يمتهن الخدمة وربمـا ممـن لا يصـلحن للتسـلية والمتعة ومشاغلهن في الأعمال المرهقة والأعمال الضعيفة. وطريقة الحصول عليهنّ من السبي[3] والسلب[4] أو البيع في الأسواق، أو (يقدمن كهدايا)[5] لخدمة الزوجـات والخليلات والتابعات[6]. وهناك دار لبيع البنات[7].

وأُطلِقت لَفظَةُ أمة على الجارية التي تمتهُن الغناءَ أو الجاريةُ التـي تمـتهن الرقص. ويبدو أنّ الأمة عند بعض الناس كانت محتقرة[8].

وقيل إن الأمة تشتري بالعين وتُرد بالعيب ، والحُرّة غلٌّ في عُنق من صارت إليه)[9]. فكانت تنتقل ملكيتها شأنها شأن المواد الآخرى، ولا تستطيع أن تقف بوجـه

---

(١) ابن منظور : لسان العرب م١٤ ص٤٤ – ٤٥ – ٤٦ – طـ. بيروت ١٩٥٦م دار صـادر – للطباعة والنشر . وانظر المخصص : جـ٥ ص٨٣.

(٢) د. صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس: ص٩٧ – ٩٨.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة : جـ٢ ص١٣٢.

(٤) البيان المغرب : جـ٢ ص٣١٣.

(٥) الذخيرة : م١ ق٤ ص٢٢.

(٦) المرأة عبر العصور : ص٥١.

(٧) البيان المغرب : جـ٣ ص٨١.

(٨) انظر الذخيرة : م٢ ق٣ ص٧٠٧.

قال الشاعر : أمكمُ لإمنا كانت أمة إنْ تنكروا ذلكَ تلقَوا ظَلمة.

(٩) العقد الفريد : جـ٦ ص١٢٨.

سيدها. وكان لهن دُورٌ تباع فيها القيان وتسمى (بدور المدنيّات) لذا أصبحت تجارتهن رائجة وأسواقهن عامرة ببيعهن.

وأرجوزة الأديب أبي عبد الله بن مسعود وضحت لنا صورة الجارية المملوكة التي وهبها سيدها إلى الوزير إبن بقنة وضاعت حالها بين يديه فجاءت – على لسانها – صورة قد تمثل وضع الجواري الأندلسيات ، يقول[1]:[الرجز]

وهبتني لأوحد مُنقطعِ ... في القبح والفقرِ حميٍّ الموضعِ
ولم يُبن لي بهذا العيب ... من فقرهِ حتى دهى بالشيبِ

ويبدو إنّ الأمة المملوكة إذا وهبت لرجل قبيح المنظر مذموم السيرة تشعر معه بالذلّ والهوان والأسر، وتكون حياتها منغصة[2]:[الرجز]

جعلتني أسيرةً مملوكة ... لطلعةِ هائلةِ صُعلوكة
يُعزي على الغالِ إلى مسعودِ ... وهو شقيُ ليس بالمحمودِ

ولم تتحقق أمنيتها التي كانت قد أخفقت فيها كونها لم تكن ضمن جواري المتعة. المنعمات. المرفهات. تحت ظلّ أسيادهن فذهبت أمنيتها هباءً بعد أن صَدَمها

---

(١) الذخيرة : ق١ م١ ص٥٥٢.

* أبو عبد الله بن مسعود القرطبي: شاعر ماجن قال عنه ابن بسام ظريف في أمره كثير الهزل في نظمه ونثره، ينهج في مجونه منهج سميه، من شعراء القرن الخامس الهجري. انظر الذخيرة : م١ ق١ ص٥٤٩.

* الوزير ابن بقنة : لم أجد له ترجمة. يقول محقق الذخيرة. د. احسان عباس ورد هذا الاسم عند الحديث عن الهدية التي اهداها ابن شهيد إلى عبد الرحمن الناصر. وهذا المذكور هنا قد يكون إبناً وحفيد له. انظر هامش الذخيرة : ق١ م١ص٥٥٢.

(٢) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

سيدها فَجَعلها ضمن جواري الخدمة فأصبَحَتْ عاملة في صناعة الغزل ، يقول [1]:[أرجوزة]

وكنتُ أرجو مَعَهُ للرّاحةْ ... إذ لم يَفُز بطائل الملاحةْ
إذا بهِ أدْخَلني في شُغْلِ ... لفَرطِ الألمامِ بسوُقِ الغَزْلِ

والجارية في مدة ملوك الطوائف بلغت مرتبة من الوعي السياسي والوطني يتضح لنا ذلك من أمانيها. فقد تمنت أن يكون سيّدها أحد الجنود الأبطال الحائز على شرف المجد في الذَودِ والدفاع عن وطنهِ وربما حصلَ على وسام البطولة، يقول على لسانها[2]:[أرجوزة]

أو لَيتني كنتُ لبعض الجُنْدِ ... فربما حَازَ نفيسَ المَجدِ
يَضْرِبُ بالسيفِ ولا يُقاسي ... خُطَّةَ خَسْفٍ بسؤالِ الناسِ

وتبدو الجارية المملوكة وفق هذه المقاييس في البيع والشراء، لا حول لها ولا قوة ، أمام إرادة وسطوة سيدها.

إلاّ أنّ الجارية غذا أنجبت من سيدها يحتفظ بها، وترتفع مكانتها فلا تباع ولا تشتري وتسمى جارية (أم ولد) [3]. وفي تاريخ الأندلس تطالعنا أسماء لامعة لأمهات الأولاد كـ(أنَل) [4] والدة (المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم). و(مزنة) والدة الناصر لدين الله – التي عرفت بالعرجاء ، لخلع بها[5]. و(صبح) [6] والدة هشام المؤيد التي كانت أعظمهن نفوذاً، وغيرهن من أمهات الأولاد. وتطالعنا الجارية (أم

---

(١) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها.

(٢) الذخيرة : ق١ م١ ص٥٥٢.

(٣) انظر اسماء أمهات الأولاد في البيان المغرب : جـ٣ ص٥٠ وما بعدها.

(٤) انظر جذوة المقتبس: ص٤٠.

(٥) جذوة المقتبس: ص٤٠ . البيان الغرب: جـ٣ ص٥٠.

(٦) جذوة المقتبس : ص٤٠.

ولد) في عصر الطوائف أماً للملوك والوزراء أيضاً كـ(حوراء) [1] والدة محمد بن عبد الرحمن المستكفي بالله. وهي جارية أم ولد. و(عاتب) [2] والدة هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر. بينما يقول الأصمعي (كانت بنو أمية لا تبايع لبني أمهات الأولاد، فكان الناس يرون أن ذلك لاستهانة بهم، ولم يكن لذلك ولكن لما كانوا يرون أن زوال مُلكهم على يد ابن أم ولد) [3]. لذا نجدحال الجارية أم ولد في الأندلس أحسن بكثير من حالها في المشرق. وربما تعرض ابن الأمة عندهم إلى استهجان الناس له ولحقه عارها فقد قال الشاعر[4]:[البسيط]

أمّا الإماءُ فلا يدعونني ولداً إذا ترامى بنو الأموان بالعارِ

بينما نجد إبن الحرّة ظلّ موطن فخر وإعتزاز، يقول ابن دراج القسطلي (٤٢١هـ) [5]: [الطويل]

وقد عَجَمتْ منّي الخطوبُ ابنَ حرَّةٍ أبيّاً محزانـي لوقـع مُـداها
جديراً إذا أكـدى الزمـانُ برحلـةٍ يُحقِّرُ بَعدَ الأرضِ عَرضُ فلاها

علاقة الجارية بالرجال :-

إن لجواري الأندلس عالم خاص بهن، وما قيل فيهن من أشعار وما جاءنا من أخبارهن وحظوتهن عند أسيادهن، أكبر دليل على أنهن استطعن أن يُؤثّرْنَ في الرجال تأثيراً عميقاً.

---

(١) البيان الغرب: جـ٣ ص١٤٠.

(٢) المصدر نفسه: جـ٣ ص١٤٥.

(٣) العقد الفريد : جـ٦ ص١٢٩ – ١٣١.

(٤) المخصص: جـ٥ ص٨٣. لسان العرب : م١٤ ص٤٥ . وقد خلت المصادر باسم الشاعر.

(٥) الديوان : ص١٢ . طـ. الأولى تحقيق د. محمودعلي مكي .

ولم تعد الجارية متعة جسدية فحسب بل أصبحت عند بعضهم حاجة روحية ، ولَهفة عقليّة وفكرية كما اصبحت ذات شأن في تدبيروإدارة عقول الملوك ، فلم تَعُدْ صلَتُها بِهم صلة أُنس، ونديمة خمر، تدخل البهجة والسرور إلى نفسه ونفوس نداماه.

وبعد أن ألقينا نظرة على وضع هذه المخلوفة قبل عصر الطوائف أدركنا مكانتها التي كانت بين مَدٍّ وجزر. فعلى سبيل المثال إنّ الجارية التي خلفها طارق بن زياد في الجزيرة سميت فيما بعد بجزيرة أم حكيم نسبة إليها[١]. إلاّ أن (عبد الرحمن[٢] مؤسس الدولة الأموية في الأندلس كان إذا أهداه أحد جارية ردّها إليه) [٣]. على حين نجد لـ(طروب) مكانة متميزة تمتعت بها عند سيدها[٤] عبد الرحمن الأوسط.

ويؤيد الدكتور مصطفى الشكعة[٥] ما ذهب إليه الدكتور عبد العزيز سالم أن قصة بناء الزهراء سيقت من إنشاء خيال المؤرخين ويستبعد أن أميراً عظيما كالناصر يقع أسيراً لجارية من جواريه الكثيرات ولكننا لا نستبعد ذلك بعد أن عرفنا قصصهنّ مع الرجال من أمراء وخلفاء وملوك، مع اعترافهم بأنهن قد خلبنَ البابهم، وليس على وجه الأرض أحسنَ من وجودهن[٦]. وقد قتل بعضهم أقرب الناس إليه

---

(١) انظر الروض المعطار :ص٢٢٣.

(٢) البيان المغرب: جـ٢ ص٩٠ – ٩٢.

جزيرة أم حكيم وتسمى بالجزيرة الخضراء. أنظر صفة جزيرة الأندلس الأدريسي: ص١٧٩ نقلاً عن أطروحة فريدة رؤوف. ص٣٥، الإمارة الأموية في الأندلس عهد الأمير عبد الرحمن الداخل: ١٣٨-١٧٢هـ

والروض المعطار: ص٧٥، وأخبار مجموعة في فتح الأندلس : ص٣٨.

(٣) المصدر نفسه : والصفحة نفسها .

(٤) البيان الغرب: جـ٢ ص٩٢.

(٥) الأدب الأندلسي موضوعاته ومقاصده: ص٣٠ -٣١.

(٦) البيان المغرب : جـ٢ ص٩٠ – ٩٢.

بسببهن كـ(قصة الأمير الطليق) المتوفى سنة (٤٠٠هـ) الذي قتل أباه لأنه أحب جارية وانفرد بها والده[١].. ولعظمتهن ومحبتهن تلقب الملوك بأسمائهن[٢]. ناهيك عن الأخبار التي ساقها لنا ابن حزم الأندلسي في طوق الحمامة مؤكداً تضحية الرجال بأنفسهم بسبب عشقهم للجواري والقيان[٣]. وذكر لنا أن رَجلاً أندلسياً باع جاريَة كان يَجِدُ بها وَجداً شَديداً لفاقه أصابته بحيث كادت نفسه أن تخرج، وأراد استردادها فأبى المشترِي، فرفع قضيته إلى الملك فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه، فرق له الملك فأمر باحضار الرجل المبتاع ، فلما حضر أبى وقال[٤]:

أنا أشدُّ حُبّاً لها منه. وأخشى أن صرفتها إليها أن استغيثَ بك غداً وأنا في أسوأ من حالته فعرض له الملك بالأموال فأبى واعتذر له. فلما يئس الأندلس رمى بنفسه من أعلى الأرض، فارتاع الملك، وطلب من المبتاع أن يرمي بنفسه من أعلى، ولكنه رفض. (فقال : يا غلمان. خذوا بيديه وارموا به إلى الارض فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك، قد طابت نفسي بالجارية. فقال له: جزاك الله خيراً ، فاشتراها منه، ودفعها إلى بائعها وانصرف[٥]. ويخبرنا عن رجلين جليلين مشهورين مرضا بسبب حبهما للجواري؛ فالأول مروان(*)بن يحيى[٦] الذي اعتلق بجارية لأخيه فمنعها منه،

---

(١) المغرب : جـ١ ص١٨٦.

(٢) أعمال الإعلام : ص١٥٩.

(٣) طوق الحمامة : ص١٩٢ – ١٩٣.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر نفسه ص١٩٣.

* مروان بن يحين بن حدير: ينتمي إلى أسرة أندلسية تولت عدة مناصب عالية في ميراث القضاء والحكم. أنظر المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦) المصدر نفسه : ص١٦٩

وباعها لغيره ، والثاني يحيى بن محمد بن أبي عبدة(*) ، باعتْ أُمهُ جاريةً له، كان يُحِبُها وذهبت إلى زواجهِ من بعض العامريات.

ومنهم من غيّردينه وأسلم بسبب حُبه لجارية كالوزير[1] أبي الفضل بن حسداى الإسلامي فقد ذكر ابن بسام (أن جارية ذهبت بلبهِ، وغلبته على قلبه، فجنّ بها جنونه، وخلع إليها دينه وعلم بذلك صاحبها فزفّها إليه، ووضع زمامها بين يديه)[2]

فلو اسلمنا جدلاً، إن كل هذه الأخبار التي سيقت من إنشاء المؤرخين فسياقها بهذا النهج يدل دلالة قاطعة على النفوذ والسيطرة والحظوة تمتعت بها الجارية عند سيدها.

هذه هي أخبارهن، أما الأشعار فقدضمت أسماء لكثرة من الجواري المحظيات.

نجد المعتمد بن عباد علي الرغم من توافر الجواري لديه وكثرتهن بين يديه، يتمنى أن يديم الله السقم عليه لتبقي جاريته سحر إلى جانبه تخفف آلامه وأوجاعه، وقد احتلت سحر جزء من قلبه الواسع، ربما لحنانها الفيّاض وعاطفتها الرقيقة، وسَحَر هذه كشفت عن صفات إنسانية نبيلة تحلت بها الجواري وربما لم تنفرد بها وحدها. فلابُدّ لها مثيلات بتلك الخصال يقول[3]:[الطويل]

سأسألُ ربي أن يُديمَ بيَ الشكوىَ ... تمنيتُ أن تبقى بجمسي وأن تقوى
شَكَوتُ وسَحرٌ قد أغبتْ زيارتي ... فقد قرّبتْ من مضجعي الرّشأ الأهوى

---

* بنو عبدة : بيت أندلسي لهم دور هام في تاريخ الأندلس أثناء العهد الأموي وملوك الطوائف.

(١) أنظر ترجمته في قلائد العقيان: ص٢٠٩ -٢١٢.

(٢) الذخيرة : ق٣ م١ ص٤٥٧ – ٤٥٨.

(٣) انظر ديوان المعتمد بن عباد : ص٢ تحقيق أحمد أحمد بدوي ، وانظر المصدر نفسه: ص٧٥٤ تحقيق د. صلاح خالص.

فيا علتي دُومي فانتِ حبيبةٌ ويا ربِّ سمعاً من ندائيَ والشكوى

وربما لحسنهنّ وثقافتهنّ ذهبن بألباب أسيادهن[1] ومنهن من كانت رائعة الجمال[2]. وقد شاركهن المشرقيات بتلك الصفات[3].

ويعترف ابن الحداد المتوفى (٤٨٠هـ) بجنونه بسبب حبه لجارية سلبت عقله. ربما لم يطلها.

وقد أطلق الشعراء الكنى على اللواتي أحبوهن فغيروا أسماءهن. وأحب ابن الحداد جارية، ("وكان يسميها" نُوَيْرَة" كما فعله الشُّعراءُ الظُّرفاءُ قديماً في الكنايةِ عمَّنْ أحبُّوه، وتغيير اسم مَنْ عَلِقُوه) [4]. فقال[5]:[الطويل]

رأيتُ جنوني من نُويرةَ كاسمِها ناراً تُضل، وكل نار ترشد
والماءَ انتِ، وما يَصحُّ لقابضٍ والنارُ أنتِ ، وفي الحَشا تتوقَّدُ

وأرسل زَفَراتِه التي أسعرت جوفه بنار نويرة المتوقدة يقول[6]:[السريع]

وفي الحَشْا نارُ نويرّية عُلّقتها مُنذُ سنيّات
لا تنطفي وقتاً وكمْ رمتُها بل تَلْتَظي في كلِّ أوقاتي

وتبدو نويرةُ نصرانية تَتَردّدُ على الكنائس ، ربما لتأديةِ المراسيم أو لقضاءِ حاجةٍ أخرى. وقد عَلِقَ بها في ذلك المكانِ المقدسِ يقول[7]:[مجزوء الوافر]

---

(١) الذخيرة : م٢ ق٣ ص٤٥٧.
(٢) النفح : جـ٤ ص١٢٧ وص٣٧١.
(٣) ياسين خير الله العمري: مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء: ص٢٢٢-٢٢٤ تحقيق رجاء محمود السامرائي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد – دار الجمهورية، بغداد ١٩٦٦م.
(٤) الذخيرة : م٢ ق١ص٦٩٣. وانظر غرسية غومس: الشعر الأندلسي: ص٥٠.
(٥) المصدر نفسه : م٢ ق١ ص٧٠٤.
(٦) الذخيرة : م٢ ق١ ص٧٠٦.
(٧) المصدر نفسه : م٢ ق١ ص٧٠٧.

عَسَـــاكِ بِحَـــقِ عِيســـاكِ مُرِيحـــةَ قَلبِـــيَ الشـــاكي
ولَـــم آتِ الكنـــائسَ عـــن هَـــوىً فـــيهنّ لَـــولاكِ
وعَقْـــدُ الـــروضِ خَـــدّاكِ ومِـــنْ ريَّـــاهُ ريّـــاكِ

إن الشيء بالشيء يذكر فقد بهتت صورة الجارية المبتهلة إلى الله، إلاّ أن ابن شـهيد صوّر لنا قطعة شعرية حرصت فيها الجارية على التوبة والغفران لما عُرف عـنهنّ من ابتذال. وربما تحلت بالحياء لذا ولّت مسرعة حين وقعت عينها على الشاعر إبـن شهيد خيفة التشبيب بها، وكانت هذه الجارية (من اعيان أهـل قرطبـة معهـا مـن جواريها من يسترها ويواريها وهي ترتاد موضعاً لمناجـاة ربهـا وتبتغـي منـزلاً لاستغفار ذنبها وهي منتقبية خائفة وممن يرقبها مَترقّبة وأمامها طفلٌ لها كأنه غصـن آس أو ظبي يمرح في كناس ... فلما نظرها قال قولاً فضـحها بـه وشـهرها)[1]: [المتقارب]

وناظرةٍ تحـت طـيِّ القنـاعِ دعاهـا إلـى الله والخيـر دَاعِ
سمعت بابنها تبتَغـي منـزلاً لوصـل التبتُّـل والإنقطـاعَ
فجاءتَ تهادي كمثل الـرَّؤوم تُراعي غـزالاً بـأعلى يفـاعِ
أتتنـا تَبَخْتَـرُ فـي مَشْـيِها فَحَلَّـتْ بـوادٍ كثيـرِ السِّـباعِ

وقد بدت (جوهرة) جارية المعتمد بن عباد نقيّة طاهرة بعيدة عن الإبتذال، ربما لأنها لم تتناقلها الأيدي يقول[2]:[السريع]

سُـــرورنا دُونكـــم نـــاقصٌ والطيـــبُ لا صـــافٍ ولا خـــالصُ

---

(١) انظر ديوان ابن شهيد : ص٩٤ -٩٥ – عني بجمعه شارل بلا، طـ. الأولى بيروت – لبنـان – ١٩٦٣ – دار المكشوف . وانظر علي ابن ظافر الأزدي: بدائع البدائـة: ص٣٥٧ تحقيـق محمد أبو الفضل، طـ – ١٩٧٠ – مكتبة الأنجلو القاهرة.

(٢) انظر ديوان المعتمد : ص١٩ تحقيق أحمد أحمد بدوي،والمصدرنفسه: ص١٤تحقيـق صـلاح خالص. والخريدة : جـ١١ ص١٤٨.

والسّعدُ أن طالعنا نجمُهُ وغبتَ، فهو الآفلُ النّاكصُ
سَموك بالجوهر مظلومةً مثلُك، لا يُدركهُ غائصُ

ولقد جسّدَ ابن حَزم الأندلسي المتوفى (٤٥٦هـ) صورة العفة والنّزاهة والخير والصلاح وإشراقة نور الرحمن حين قال[١]:[البسيط]

خريدةٌ صاغها الرحمنُ من نُورِ جلّتْ مَلاحتها عن كلِّ تقديرِ
لو جاءني عَملي من حُسنِ صورتها يوم الحساب ويومَ النفخِ في الصُّور
لكنتُ أحظى عبادِ الله كُلّهمُ بالجنّتين، وقُربِ الخُرّد الحُور

والجارية التي خليت عقول الأمراء والملوك نجدها هنا تسلب عقل الناسك الورع فقد ذكر لنا ابن حزم أن صاحب صلاة جامع قرطبة (أحبّ جارية حباً شديداً فعَرض عليها أن يُعتقَها ويَتزوجها فقالت له ساخرةً به، وكان عظيم اللّحية:-

إنّ لحيتك إستيشع عِظمَها، فإن حُذفت منها كان ما ترغبه فأعملَ الجلمين فيها حتى لَطُفت، ثم دعا بجماعةِ شهودٍ، وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترضَى به، وكان من جملة من حضر أخوه، فقال لمن حضر : اعرض عليها أنّي أخطُبها أنا : ففعل ، فأجابت إليه، فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار الفادح، على ورعِه ونُسكه واجتهاده)[٢].

نستشف من الخبر السابق تمتع الجارية بحرية تامة في إختيار الزوج وشريك الحياة دون ضَغط ولا إكراه، علاوةً على تمتعها بروح الدُعابة والظرف، وتمكنها من الجرأة والحرية في التعبير عن ذوقها وأفكارها.

---

(١) طوق الحمامة : ص٢٠١.

(٢) طوق الحمامة : ص٨٥.

ومن الشعراء من راح يتغزل بالجارية غزلاً عُذرياً شريفاً ولم يُصرّح بغرامه مخافة لوم اللائم وربما لعفتها ، كان في عُشقه صادقاً عفيفاً عميقاً، يقول الأعمى التطيلي[1]: [مجزوء الكامل المرفل]

يا مَنْ كتمتُ غرامَهُ ... حتى أضرَّبه الغَرامُ
وإلى العذول ملامةً ... والصبُّ يؤلمُهُ المَلامُ
هلاَّ رعيتُ ذمامَه ... والحبُّ أيسَرُهُ ذِمامُ

وبدَت صفة الشقرة عند الجواري واضحة فجارية ابن حزم (نَعْم) شقراء جميلة جمعت بين حسن الخلق ولطافة[2] الخلق: [الطويل]

مُهذّبة بيضاءُ كالشمسِ إنْ بدَتْ ... وسائر ربّاتِ الحجالِ نجوم
أطارَ هواها القلبَ عن مُستقَرِهِ ... فبعدَ وقوع ظلَّ وهو يحوم

تبدو جارية ابن زيدون شقراء ذات بشرة بيضاء شابة صبيّة لم تتجاوز السادسةَ عشَرَ مثلما جاءَ في وصفِه لها قائلاً[3]:[البسيط]

من حُبِّ جاريةٍ يبدو بها صَنَمُ ... من اللّجينِ، عليه تَاجُ عِقْيانِ[4]
غريرةٌ لم تفارقها تمائمُها ... تسبي العقولَ بساجي الطرف وسنانِ
حتى تكونَ لمن أحببتُ خاتمةً ... نَسختُ في حُبّها كفراً بإيمانِ

---

(١) الديوان : ص٢٦٠.

(٢) طوق الحمامة: ص٧٩.

(٣) ديوان ابن زيدون : ص٢٦٧ تحقيق كامل وخليفة.

(٤) اللجين : الفضة . العقيان : الذهب الصافي.

ولقد تباين الشعراء في أذواقهم فمنهم من تغزل بجارية شقراء، ومنهم من راح يتغزل بالجواري الصفراوات إبن خفاجة الأندلسي الذي تغزل بصبيّة صفراء اللون تدعي (عفيراء) وقد قال فيها[1] : [الطويل]

أرقتُ لذرى منزلٍ شطَّ نازحٍ ... كلفتُ بأنفاس الشمال له شمّا
وأقوِئُ عفيراءَ السلامَ وقُل لها ... ألاهَلْ أرى ذاك السُّها قمراتمّا
ودون الصِّبا إحدى وخمسونَ حجّةً ... كأني وقدولّت أُريتُ بها حلُماً
ويا ليتني كنتُ ابنَ عشرٍ وأربعٍ ... فلم أدعُها بنتاً ولم تدعُني عمّا

أما الحكيم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني المتوفى سنة (٥٢٩هـ) فقد عشق جارية سوداء ، لكنها بدت جميلة في نظره فشبهها بالمسك، بلْ إعتقد هي والمسك من طينة واحدة ، وكانت تدعي (عَزُّ) ، قال[2]:[السريع]

يا عَزُّ عزَّ الوجد صَبري بما ... أصبحتِ من حُسنك تبدينه
وقد أخذْتِ المسكَ فخراً بأنْ ... أصبحَ يُحكيك وتحكينه
لا شكَّ إذا لونكما واحدٌ ... أنكما في الأصل من طينه

وعلى أيةِ حال فالرجلُ شغلَته الجارية سواء أكانت بيضاء أم سوداء، وبلغ من انشغاله بها بحيث نجد المعتمد بن عباد عندما أرسل رسالة إلى "يوسف بن تاشفين" وكان – لا يكاد يعرف العربية – وقد ضمّن المعتمد رسالته بأبيات من الشعر لابن زيدون من نونيته المشهورة:[البسيط]

بِنْتُم وبِنّا فما أبتلّتْ جَوانحُنا ... شَوقاً إليكُم ولا جَفَّتْ مآقينا
حالتْ لفقْدِكُمُ أيامَنا فَعَدَتْ ... سُوُداً وكانت بكمْ بِيْضاً لياليناً

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ص٨١ . وانظر الذخيرة : م٢ ق٣ ص٥٧٧.

(٢) الديوان : ص١٤٧.

فلما قُرِئَ عليهِ هذانِ البيتان قال للقارش يطْلُبُ مِنّا جوارَي سوداً وبيضــاً[1]. فهذه الرواية وأن كانت يعوزها بُعْدَ التحاملِ والإدعاءِ ضد المرابطين إلاّ إننا نَلْمَــسُ من سياقها إهتمام وإنشغال الملوكِ والقادةِ بالجواري.

وبلغ حبهم لجواريهم أن يأتوا بصور متخيّلة لهنّ في نفوس الشعراء. فوصف ابن خفاجة الجارية المصنوعة من ورق الريحان، وقد عُطرت بأثمن العطور وقلّــدت حُليّاً ثمينة فأجادت قريحته حين قال[2]:

لقدْ زفَّ بنتــاً للخميلــة طفلــةً ... يهزُّ إليها الدَّستُ أعطافَ مُعرسِ
تُشيرُ إليها كلُّ راحــةِ سُوسَــنٍ ... وتَشْخصُ فيها كلُّ عين لنرجسِ[3]
تنوبُ عن الحسناء والدار غربةٌ ... فما شئتَ من لهــو بهــا وتــأنُسِ
وتملأُ عينَ الشَّمسِ لالاءَ بهجةٍ ... وحُسنٍ وأنفَ الرِّيح طيبَ تــنفُّسِ

وبلغ تاثر الشعراء بجواريهم ، أنهم استعادوا الصور الشعرية مــن هيــأتهن وأناقتهن وحليهنّ، كل هذه الصور أطراها ابــن عمــار علــى وصــف زورق رآه قائلاً[4]:[الطويل]

وجاريةٍ مثلِ الهــلالِ آلفتُهــا ... على نَهرٍ مثل السَّــماءِ رقيــقِ
تجلَّى لنا الإصباحُ وهو زمردٌ ... فألقت عليه الشمسُ ثوبَ رحيقِ

وربما تغزل ابن شهيد بلكنة جارية كما تغزل بجمال صدرها قائلاً[5]:[الكامل]

---

(١) انظر اميلو غرسية غومس: الشعر الأندلسي : ص٥٥.
(٢) ديوان ابن خفاجة : ص١٥٥، تحقيق مصطفى غازي ، ط. المعارف -١٩٦٠.
(٣) المصدر نفسه : ص١٥٥ -١٥٦.
(٤) الحلة السيراء : جـ٢ ص١٦٤ ، يقصد بالجارية هنا الزورق أو السفينة.
(٥) أنظر ديوان ابن شهيد : ص٧٧ -٧٨ . وانظر شارل بلا : ابن شهيد حياته وأثره : ص١١٥. هذه الأبيات مقمة غزلية ثم مدح عبد العزيز بن عبد الرحمن ابــن المنصــور الــذي صــار صاحب بلنسية بعد سنة ٤١٢هـ. انظر ديوانه السابق ص٧٧ تحقيق شارل بلا.

يدعو بُلكنةِ بَربريٍّ طَرفُهُ فشربتُها وسمعتُ من طُنبـورهِ
متنصّبٌ كالغصنِ إلاّ أنّـه يهتزّ من أعجـازهِ وصـدورهِ

وفاء الجواري :-

سجلت الجارية وفاء نادراً ، في حبها وتعلقها في الرجال ومنهن من أظهرت حبها، وبعضهن من أحبت وكتمت.

وقد نقل لنا إبن حزم الأندلسي صوراً عن وفاء الجواري لأسيادهن فمنهن من مات سيدها (فبيعت في تركته فأبت أن ترضى بالرجال بعده إلى أن مـات ، وأنهـا كانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به، ورضـيت بالخدمـة والخـروج عـن جملـة المتخذات للنّسل واللّذة والحال الحسنة) [1] ومنهن من ذرفت دموعاً وبكت بكاءً شديداً على فراق سيدها فأجابها[2]:[المتقارب]

ترفـق بـدمعكَ لا تُفنِـهِ فبـين يَـديك بُكـاء طويـلُ

أمّا خبر الجارية التي عزف عنها سيدها (لشيءٍ بلغه في جهتهـا لـم يكـن يوجب السخَطَ. فباعها، فجزعت جزعاً شديداً وما فراقها النّحول والأسف، ولا بـانَ عنِ عينها الدّمعُ إلى أن سلّت وكان ذلك سبب موتها. ولقد أخبرَتْ ابن حَـزم إمـرأة كان يثق بها. أنها لَقِيَتْها وهي قد صارت كالخيال نُحولاً ورقّة، فقالت لهـا : أحسَـبُ هذا الذي بك من محبّتك لفلان فتنفّست الصعداء وقالت والله لا نسيتُه أبداً وإن كـان جفاني بلا سبب. وما عاشت بعد هذا القول إلاّ يسيراً) [3]. والفينـا أن بعضـهن قـد كتمت الأسرار وحافظت على الأخبار لشدة وفائها فقد قيل إن (إمـرأة موسـرة، ذات جواري وخدم، فشاعَ على احدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلهـا، ويعشـقها، وأن

---

(١) طوق الحمامة : ص١٣٧.

(٢) أعمال الإعلام : ص١٩١.

(٣) طوق الحمامة : ص١٨٤.

بينهما معانٍ مكروهة! وقيل لها : إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جليّة أمرها ، فأخذتها وكانت غليظة فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يصبر على مثله جُلداء الرجال، رجاء أن تبوح لها بشيء مما ذُكر لها، فلم تفعل) [1]. فالصورة التي أبدتها هذه الجارية من التزامها الصمت، وتحملها الأذى لدليل قاطع على اخلاصها ووفائها لزميلتها.

وقد أفرد ابنُ حَزْم[2] في كتابه طوقُ الحمامةِ باباً للوفاء ضمنه مراتبه وشروطه على المحبين.

القينة : -

(الأمة المغنيّة ، من التَّقين وهو التزين. ومنه قيل للمرأة مقينة إذا كانت تزين النساء ، شبهت بالأمة ، لأنها تُصلحُ البيتَ وتُزينه وقيل القينةُ الأمةُ مُغنيّةً كانت أو غير مغنّية. والمغنيةُ تسمى قينةً إذا ان الغناءُ صناعةً لها وذلك من عمل الإماء دون الحرائر) [3].

والقيان الجواري المغنيات[4]، وربما لا تغني بقصائد الزهديات بل الأشعار المطربة المثيرة الطبع إلى العشق ، والنص الذي عثرنا عليه في الذخيرة يؤكد وجود الفرق بني الجارية القينة والملهية والمغنية يقول ابن بسام (وأعدَّ له القينات والملهيات والمغنيات، فوكسهُ في الصبا بعد المشيب وعرف شغفه بالبطالة فقصدها) [5] . وربما اختصت القينة بالغناء يقول[6] المعتمد بن عباد:[الطويل]

---

(١) المصدر نفسه : ص٩٣ -٩٤.

(٢) طوق الحمامة : ص١٣٤ -١٤٠.

(٣) لسان العرب : م١٣ ص٣٥١.

(٤) ابن طيفور : بلاغات النساء : ص٢١٨.

(٥) الذخيرة : م١ ق٣ ص٥٢٥.

(٦) ديوان المعتمد : ص٩٩.

فيا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً أمامي وخلفي روضةٌ وغـديرُ
بِمنبة الزَّيتون مورثةِ العُـلا تُغني قِيـانٌ أو تَـرِنّ طيـورُ

المغنيـــة:-

اشتهر الأندلسيون بحب الغناء وعشق المغنيات وشاع اقتنـاؤهن واقتنـاء الجـواري بصورة عامة فكن يملأن القصور. قد يكون لحياة الترف والبـذخ وطبيعـة الـبلاد الجميلة جعلت المرأة الأندلسية هي الأخرى تشغف به وتحترفه. كما شغفت به أختهـا المشرقية[1]. ودليلنا القاطع على شغفهم هو وجود أدوات الطرب فـي بلادهـم مـالم يوجد في غيرها[2]. لا يرى صاحب العقد الفريد من خلق الله شيئاً أوقع فـي القلـوب وأشدّ إختلاساً للعقول من الصوتِ الحَسنْ لا سيما إذا كان من وجه حَسنِ[3]. والـدليلُ الآخر إستقدام القينات المدربات من المدينة وبناء دار لهنّ ملحقة بقصر عبد الـرحمن الأوسط سُميت بدار المدنيات[4]، كـ(فضل) التـي حصـلت علـى ثقافـة شـعرية وموسيقية[5] فائقة وقَلَمُ الأندلسية الأصل التي أسرت وهي صغيرة وعادت إلى وطنها لتسحر بغنائها التي تميزت بحنداقته[6]. أداءً ولحناً. وقمر البغدادية التي بذل صـاحبها أموالاً عظيمة لشرائها وأقدمت إلى الأندلس فازدرى بهـا نسـاء العـرب، وأخـذن يتهامسن إذا مَرت ويتغامزنَ إذا غنت، فقالت[7]:[البسيط]

---

(١) كرم البستاني : النساء العربيات : ص١٧٧. طـ. بيروت . دار صادر ١٩٦٤.

(٢) ابن حزم وابن سعيد والشقندي : فضائل الأندلس وأهلها: ص٥٢.

(٣) العقد الفريد: جـ٦ ص٥.

(٤) النفح : جـ٤ ص١٣٦.

(٥) إ.ليفي بروفنسال: الشرق الإسلامي والحضـارة العربيـة: ص٢٤ - ٢٥طـ. المغـرب - ١٩٥١.

(٦) النفح : جـ٤ م٢ ص١٣٦.

(٧) بشير يموت: شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام: ص٢٢١، طـ. الاولى سنة ١٩٣٤.

لَو يَعقِلُونَ لمّا عابوا غُرْبتَهُم لله من أمةٍ تُزري بأحرار

ولقدوم زرياب وتلاميذه أثر واضح على الموسيقى والغناء ولا ننسى اثر جاريته (مُتْعة) التي علّمها أحسن أغانيه، وابنته حمدونة التي أتقنت صناعة الغناء، وإستقدم علون وزرقون ايام الحكم بن هشام[١]. فكان لهم أثرٌ كبيرٌعلى الغناء. والذي يعزز إهتمامهم بالغناء عنايتهم البالغة وحرصهم على تعليمهن وتدريبهن على فنون الموسيقى، ويبدو تمركزهن في قرطبة ذلك لأن المعتضد المتوفي سنة (٤٦١هـ) كان قد أرسل إليها يطلب جارية زامرة[٢] وجارية قينة. وربما تميزت قيان قرطبة واشتهرن بطربهن.

وقد بدا محمد بن الكتاني المتطبب المتوفي(٤٢٠هـ)[٣] مُعلماً للقيانِ فهو يقول : - (إن في ملكي الآن أربعُ روميّات كن بالأمس جاهلات. وهنّ الآن عالماتٌ حكيمات منطقيات فلسفيات هند سيات موسيقاويات) [٤]. وتباع القيان بأثمان باهظة وأسعارهن تتفاوت حسب مهارتهن وكلما أتقنت الصنائع ارتفعت قيمتها، ولقد دفعوا مبالغ طائلة للحصول على فنانة ماهرة[٥]. كما كانت تباع عند المشارقة، إمّا لظرفها أو سرعة بديهتها أو لجمالها أو لقولها الشعر وحفظها الأخبار[٦]. وقد تشترى الجارية إذا وُصِفت بحسن صوتها[٧]. وأول من بالغَ بثمن شرائها في الأندلس (هُذيل) المتوفي

---

(١) انظر أحمد ضيف : بلاغة العرب في الأندلس : ص٢٠ - ٢١ . وانظر فصول في الأدب الأندلسي : ص٥٠ . محمد رضوان الداية : تاريخ النقد في الأندلس: ص٢٦.

(٢) البيان المغرب: جـ٣ ص٢٥٠.

(٣) أبو عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس : ص١٣ ، طـ . الثانية - مطابع الشروق - ١٩٨١.

(٤) الذخيرة : م١ ق٣ ص٣١٩ -٣٢٠.

(٥) ابن ظافر : بدائع البدائة: ص٧٤. ط. غير محققة.

(٦) ابن الجوزي : الأذكياء : ص٢٣٧ وص٢٢٧.

(٧) المغرب : جـ٣ ص٢١٢.

* هذيل : كان بارع الجمال حسن الخلق جميل العشرة ظاهر المروءة لم يرمن الأمراء أبهى منه منظراً. توفي سنة ٤٣٦ هـ. انظر المصدر السابق.

سنة (٤٣٦هـ) فقد إشترى جارية الكتاني المتطبب بثلاثة آلاف دينار بعد أن أحجمت الملوك عنها فكانت ستارته أرفع ستارات الملوك بالأندلس[١]. وارتفعت أثمانهن فكانت الواحدة منهن تباع بألف دينار لحسنها وتمام خلقتها[٢]. وربما تعرضت الجارية للامتحان ومقارضة الأشعار وبعد تفوقها تبتاع[٣]. ومنهم من إشترى جواريا للمتعة من اللائي يأنس بهن[٤]. وربما المّت القيدة بكل هذه المؤهلات التي سردها ابن حيان، منها الخفة في الروح السرعة في الحركة . اللّين في العطاف. الطيبة في الصوت. الحسن في الغناء. الجودة في الكتابة. الحسن في الخط. الإبداع في الأدب. السلامة في اللحن في الكتابة والغناء. المعرفة بالنحو واللغة والعروض المعرفة بالطب والمعرفة بعلم الطبائع. المعرفة بالتشريح. تحسن صناعة الثقاف والمجادلة بالتراس، تحسن اللعب بالرماح والسيوف والخناجر[٥]. بهذه الفنون اختصت الجواري دون الحرائر ونخص منها فن الغناء فقد قيل عنه (إنه ينوب عن الخمر ويصنع بالعقل ما يصنعه السكر. فإن كان ولابدّ فجنبوه النساء فإنه داع إلى الزنا) [٦]. ولم نجد من الحرائر من أتقنت الموسيقى واشتهرت بها إلاّ بنات زرياب. وولادة (*) بنت المستكفي. (وهي التي كانت في نظرهم من المتطرفات) [٧].

---

(١) البيان المغرب: جـ٣ ص١٨٣ -٣٠٨.

(٢) محمدعبد المنعم الحميري: الروض المعطار : ص٣٣٠.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الإماء الشواعر: ص١٣٠ - ١٣١ تحقيق د. نوري حمودي القيسي. ود. يونس الامرائي. السيوطي : المستظرف من أخبار الجواري: ص٦٩ -٧٠.

(٤) الذخيرة : م١ ق٢ ص٣٥.

(٥) البيان المغرب : جـ٣ ص٣٠٨.

(٦) محاضرات الأدباء: جـ٢ ص٧١٥.

* ولادة بنت الخليفة المستكفي شاعرة غزلة هجاءة سنتكلم عنها لاحقاً

(٧) محمد جميل بيهم : المرأة في حضارة العرب : ص٢٥٥.

ولقد صوّر لنا ابن خفاجة صورة لمغنية متمكنة من فنها، جمعت بين الجمال الجسمي وجمال الصوت والبراعة في الغناء. بدت أغانيها موجزة قصيرة، للذّتها ولطفها وخِفتها ، يقول [1]:[الكامل]

وفتاةُ حسن كلُّها أعجازُ ... غنّت غناءً كلُّه إعجازُ
لذّت أغانيها وخَفت موقعاً ... فكأنما تطويلها إيجازُ

ومن الجواري من اقترحت معاني الأغاني على الملحنين ومنهن من صنعت لحناً رائعاً في طريقة النشيد كـ(ضنى العامريّة) إبنة المظفر الأكبر للحاجب المنصور بن أبي عامر. ومنهن من وصفت أمام ابن حزم صوراً شعرية على حدتعبيره فصنعها شعراً يقول[2]:[الخفيف]

خَلِّ هذا وبادر الدهرَ وارحَلْ ... في رياض الرُّبى فطيَّ العُقارِ
واحدِها بالبديع من نعمات الـ ... سعودِ كيما تُحثُّ بالمزمار
إن خيراً من الوقوف على الدا ... رِ وقوفُ البنانِ بالأوتار

يقول ابن حزم (ولقد أنشدتها بعض إخواني من أهل الأدب فقال سروراً بها : يجب أن توضع في جملة عجائب الدنيا السبع) [3].

ومنهن من غنّتْ بأشعار ليس لها كالجارية التي أخذت العودوغنت بعدأن أومأت العلجَةُ لها بالغناء فغنت[4]:[الطويل]

خَليليَّ ما للريح تأتي كأنما ... يخالطها عند الهبوب خَلوق
أم الريحَ جاءت من بلادِ أحبتي ... فأحسبها ريحَ الحبيبِ تسوقُ

---

(١) الديوان : ص٣٥٢ . وانظر الذخيرة : م٢ ق٣ ص٦٠٣.

(٢) طوق الحمامة : ص١٨٢ . وانظر طه الحاجري : ابن حزم صورة أندلسية: ص٥٣ -٥٤.

(٣) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

(٤) الذخيرة : م١ ق٣ ص٣١٨.

وكان في المجلسجاريات من القوّامات أسيرات جميلات فلما سمعت إحداهن الشعر بكت ولما سئلت : ما أبكاك؟ قالت : هذا الشعر لأبي، وسمعته فهيّج شجوني . فقيل لها : من أبوك؟ قالت سليمان بن مهران[1] السرقسطي، ولي في الأسر مدة ولم أسمع لأهلي بعدُ خبراً.

ومن الطبيعي أن تثير القيان الفرح والسرور بنفس السامع وربما أثرن الحنين والشجون، ومن ذائعات السرور بأصواتهن يقول التطيلي[2]:[المتقارب]

وقد حسدتك القيانُ الحنين فهلاّ حسدت السرور القيانا

ويبدو أن التطيلي شغف بحب القينة "لذيذة" وأنها تركته لعذابه بين غليان فؤاده وانسكاب دموعه وقد تغزل بخالٍ لها. ولا ندري هذا الخال كان طبيعياً أم وضع لزيادة الجمال والحسن تماشياً مع متطلبات القيان. وقد اعترف بحبه لها وكان يكنيها بـ(أم الوفاء) قائلاً[3]:[البسيط]

يا ربِّ سَفكتْ أمُّ الوفاء دمي وقد تخوفتُ يوماً أن تؤاخذ بي
سبَتْ فؤادي ذاتُ الخالِ قادرةً ولا نصيبَ له منها سوى النصَبِ

وتظهر لنا صفات القينة المتقلة في الحب، الجافية[4]:[الكامل]

يا حبذا أمُ الوفاءِ وإن جفتْ وتَغَيَّرتْ فهي التي لا تسأمُ
وهي التي انفردتُ بودّيَ كلِّه ولطالما قدكان وهو مُقَسَّمُ

---

(١) سليمان بن مهران السرقسطي:أديب شاعر مشهور. له جلالة قدر. كان ينشد الشعر في مجلس الوزير أبي الإصبغ علي بن سعيد . انظرترجمته في جذوة المقتبس: ص٣٤٩ ترجمة (٤٥٨).

(٢) ديوان التطيلي : ص١٩٠.

(٣) الذخيرة : م٢ ق٢ ص٧٣٥ – ٧٣٦.

(٤) المصدر نفسه: م٢ ق٢ ص٧٣٩.

وقد اكتملت صورة المغنيات عند ابن حمد يس فظهرَت محاسن أجسامهن وأصواتهن وزينتهن. حيث تَزَيّنَ بأثمن الأحجار وقد خضبن البنان وأنشدن أحسن الألحان فجاءت صورتهن تسرّ الكئيب وفيها يقول[1] :[المتقارب]

وغيدٍ لطائفُ ألحانِها ... تُنَغّمها لسرورِ الكئيب
فكلٌ مُقمعةٍ بالعقيقِ ... من الدّرِ أغصان كفّ خضيب.
إذا أسمَعَتْ حسناتِ الغناء ... شربنا عليها كؤوسَ الذنوب

ونجد صورة أخرى لقينة جمعت بين جمال الوجه وروعة الغناء وحسن الصوت ينقلها السرقسطي قائلاً[2]:[الكامل]

لا عيشَ إلاّ في المُدامِ وقَينةٍ ... تَشدُو على وَترٍ فصيحِ ألثّغِ
وكأنما نَغماتُها في لفظها ... ذهبٌ أُسيلٌ على لجينٍ مُفرَغِ
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهِها ... ناديتَ يا قمرَ السّما : لا تبزغِ

ومنهنّ من امتازت بجمال نادر كـ(بياض البشرة وصفائها) مع احمرار وجناتها، ورشاقة قدها وطول قامتها فظهرت صورة رائعة في الحسن. وفيها قال أحمد بن فتح التبهرتي[3](*):[الكامل]

ما حاز كُلَّ الحُسن إلا قينةٌ ... بصريةٌ في حُمرةٍ وبياض.

---

(١) ديوان ابن حمد يس : ص١٣.

(٢) التشبيهات : ص١٠٥.

* أبو عثمان السرقسطي الملقب بالحمار: سعيد بن فتحون بن مكر التجيبي ينسبب إلى سرقسطة ونسبه ابن عبد الملك إلى قرطبة. كان إماماً في النحو واللغة وفي أيام المنصور بن أبي عامر نالته محنة شديدة أدت إلى سجنه ثم هاجر إلى صقلية. ترجم له صاحب الجذوة : ص٢١٦ والبغية : رقم ٨١٣.

(٣) البيان المغرب : جـ١ ص١٠٣.

* أحمد بن فتح أشار إليه الكتاني في الشتبيهات: ص٢٨٣.

الخَمرُ في لحظاتِها والوردُ في وجناتها هيفاءُ غيرُ مناض

وربما اشتهرت القيان بجمالهنّ الفتّان مما دعا الشاعر ابن عمار إلى جعل الأغصان تحاكي جمالهن، وإليهن يعود الفضل ، قائلاً[1]:[الكامل]

حكت الغصونُ جمالَ قدكِ فانثنت والفضلُ للمحيِكي لا للحاكي

وتغزل يوسف بن هارون الرّمادي بسواد شعر القيان قائلاً[2]:[الوافر المرجرز]

ولَيلَةِ لِمةٍ تبقى العيونُ الرامِقُ من دُجاها في ضلالِ

ومثله قوله في قينة خضبت بنانها وتعطرت[3]:[الطويل]

وأوتارُ مَخضُوبِ البنان كأنّها خَمام وصبرى حينَ طَل هَديلُهُ

ولقد لَعِبتْ القَنيةُ جوهرةُ دوراً في حياة المعتمد بن عباد العاطفية ويبدو دلالها عليه واضحاً فعذابها يلذُّ له لشدة تعلقه بها يقول[4]:[مجزوء الرجز]

جوهُر قد عذبتني منك تمادي الغَضَبِ
فزفرتي في صَعَدٍ وَعبْرتي في صَبب
يا كوكبَ الحسن الذي أزرى بزهرِ الشُهُبِ
مَسكنك القلب فلا ترضَيْ له بالعَطَبِ

ومثلما تغزل المعتمد لدلالها تغزل الرّمادي بلكنتها قائلاً[5]:[السريع]

---

(١) الحلة السيراء : ص١٦٤. تحقيق د. حسين مؤنس.

(٢) شعر الرمادي : ص١١٠ . وانظر التشبيهات : ص١٢١ قطعة٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ص١٠٤ . وانظر التشبيهات: ص١٠٥ – قطعة ١٩١.

(٤) ديوان المعتمد ص٣. وانظر المصدر نفسه تحقيق صلاح خالص: ص٧٣، والخريدة: جـ١١ ص١٤٨.

(٥) شعر الرمادى : ص١٣٤.

خُطّاقَـــــة ســـــبّحت الله بعجمـــــة يُفْهَـــمُ مَعْناهـــا
مَديدَةُ الصـــوت إذا مـــا أنـــت لكنهـــا تـــدمجُ مبـــداها
لقـــارئٍ إن تَأتَـــهِ وقفـــةً مـــدَّ بهـــا الصـــوتُ وجَلاّهـــا

وربما كان لجمالِ القينةِ أثر في سَماعها، يَشْدُ صَوتها السامعَ لها أيضاً يقـول أبن عمار[1]:[الكامل]

نفـــس إذا عـــذبتها – تهـــواكِ ويهزّهـــا طـــربٌ إلـــى لَقيـــاكِ
عَجباً لهذا الوصلِ أصـبحَ بيننـا مُتَعـذِراً ومُنـايَ فيـهِ مُنـاكِ

ونجد إبنَ عمار يُجسّد الحبَّ العذري لهذهِ القينة التي اخـتلَس النظـرَ إليهـا إختلاساً قائلاً[2]: [الكامل]

اللهُ أعلـــمُ مـــا أزورَ لحاجـــةٍ ذاكَ المَحـــلَّ لغيـــرِ أنْ ألقـــاكِ
ليتَ الرقيبَ إذا التقينـا لـم يَكـنْ فأنالَ ربَّـا مـن لذيـذِ لُمـاكِ
متنزهاً في روضِ خَـدكِ شـارباً .كأس الفتـورِ تُـديرُها عينـاكِ

وبنقُلُ لنا الرّمادي صورةَ المطربةِ العازفةِ التي لَثَمَتْ أصابُعها الأوتارَ لثمـاً وسَيطرتْ على الغناءِ فجلَبتْ الأنظار إليها. قائلاً[3]:[مخلع البسيط]

تَلْـثُمُ الأوتـارَ منهـا بنانـاً يَعْـدِلُ الأفـواه إلاّ الرضـابا
تُسبِقُ الأبصارَ من وحيِ صوتٍ تُحسِـبُ الترجيـعَ منـه إنتهابـا

ومن المغنياتِ من أنشدَتْ أبياتاً أثارت فيها سُخطَ الحاضـرينَ واشـمئزازَهُم وتطيرَهم وتشاؤمهم، وقد ذكر لنا المقّري المتوفى (١٠٤١هـ) جاريـةً غنـت أمـام

---

(١) أنظر الحلة السيراء: ص١٦٤.

(٢) انظر الحلة السيراء : ص١٦٤.

(٣) شعر الرمادي : ص٥٢ وانظر التشبيهات : ص١٠٤.

المعتمد بن عباد بأبيات (فوقع في قلبه أنها عرضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر، فهلكت)[1] والأبياتُ هي:[الكامل]

حُمِلوا قُلوبَ الأُسدِ بين ضُلوعهم ... ولَووا عمائمَهم على الأقمارِ[2]

وتقلّدوا يومَ الوغى هنديةً ... أمضى إذا انتُضيَتْ من الأقدارِ

إن خوّفوكَ لقيتَ كلَّ كريهةٍ ... أو أمنوكَ حللتَ دارَ قرارِ

وتطيّر الرشيدُ بن المعتمد في مجلس أنسه واستحالت مسرتُه وتجهمت أسرّته عندما سمعَ مغنّيةً تُنشد[3]:[البسيط]

إن شئتَ أن لا ترى صبراً لمصطبرٍ ... فانظر إلى أيِّ حالٍ أصبحَ الطَّلَلُ

فتغيّر وجهه وأمرَ مغنيّةً أخرى بالغناء فغنت: [البسيط]

يا لَهْفَ نفسي على حالٍ أُفرّقُهُ ... على المقلينَ من أهلِ المروءاتِ

إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألُني ... ما ليس عنديَ من إحدى المصيباتِ

تلافى الحال الشاعر ابن اللّبانة فقام وقال[4]:[البسيط]

مَحلٌّ مكرُمةٍ لا هُدَّ مبناه ... وشَملُ مأثُرة لا شَتّهُ الله

البيتُ كالبيتِ لكن زادَ رذا شرفاً ... أنَّ الرشيدَ مع المعتدّ رُكناهُ

لقد بدا الغناءُ في الفترةِ المدروسةِ مُدعاةً للتفاؤلِ والسَعدِ وباباً من أبوابِ مدح الملوك والرؤساءِ. والقينةُ ذاتُ باعٍ طويلٍ في الغناءِ والعزفِ والطربِ، وجدناها قد أحسنَتَ الضربَ على العُودِ وغنّت بصوتٍ شجيٍ رخيمٍ، وربما وضعت لحناً بارعاً منتظماً، مما جعلها غالية الثمن عالية الشأن سامية المرتبة.

---

(١) نفح الطيب : جـ٦ م٣ ص١٢.

(٢) المصدر نفسه : جـ٦ م٣ ص١٢.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ : جـ١٠ ص١٨٨ طـ. بيروت سنة ١٩٦٦.

(٤) المصدر نفسه: والصفحة نفسها.

أثرت القينة على رجالِ الدولةِ في البيئةِ الأندلسيةِ كمَا أنها أوحت للشاعر النَظم البديع بجمال معانيهِ وسُبكِ ديباجتهِ وحُنوّ موسيقاه وألحانه، وذلك لأن الغناءَ شيءٌ يخَصُ النَفْسَ دُون الجِسم فيشغلها عن مصالِح الجسمِ كما أن لذة المأكول والمشروب تَخصُ الجسم دون النفس[1].

ونَستطيعُ أن نقولَ بكلِّ ثقة إنّ الشعر الأندلسي مَدين للمرأة الجارية، سواء أكانت مغنية أم راقصة أم ساقية. هذا ما وصلت إليه القينة في ذلك العصر من موهبة وفطنة وإتقان في الصنعة ، والجودة في الغناء ووضع في الألحان، واختيار المعنى ونظم الاشعار والضرب على العود، بحسٍ مُرهَفٍ شَجيّ. ولم نَعثُرْ على صورةٍ للمغنية النَواحة أو ما يُسمى بغناء النواح. لقد شغف الأندلسيون[2] بالمغنيات وأغرموا بالموسيقى والرقص والغناء، ولم تقتصر مجالسهم على قصور الملوك بل شملت عامة الناس.

الراقصة :-

شاركت الجارية في الإحتفالات العامّة بالرقص والغناء كما شاركَ العربُ تحت حكم الإسبان في إحتفالاتهم وغنائهم[3]

كما كثرت الراقصات المشهورات بجمال الطبع وحسن الصنعة والحذاقة، باللّعب بالسيوف[4]. وبلغن في إتقان الرقص وسرعة الحركة التعبيرية والإذلال بها مالم تبلغه أختها المشرقيّة. كما شاع الرقص التعبيري الذي أشبه ما يكون بالرقص

---

(١) أبو الفتح محمود بن الحسين الكاتب: أدب النديم : ص٢٠. ط. بولاق المطبعة الأميرية – ١٢٩٨هـ.

(٢) انظر د. سعد اسماعيل شلبي : البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : ص٥٥ دار نهضة مصر للطبع والنشر – جامعة القاهرة – ١٩٧٨.

(٣) انظر فصول في الأدب الأندلسي : ص١٦٢. الطبعة الثانية.

(٤) فضائل الأندلس وأهلها : ص٥٢.

التمثيلي، ذلك ما جاء به أبن حمديس في وصف مغنية ترافقها الراقصات وهن يتلوين كالافاعي دلالة على تمكنهن في هذا الفن وكن يُشِرن بأملهن إلي كل عضو، فإذا ذكرت المغنية دمعا يشرن إلى العين وإذا وُصِفَتْ وجداً أشرن إلى القلب، فجسّد تَذَلّلُ المحب وتَذللُ المحبوب في حركاتِهنّ، وما يحل بالعاشق والمعشوق من تعذيب الهوى، يقول[1] [المتقارب]

توافقُ بالرقصِ أقدامَهنّ ... يَطَأْنَ بَهَا نَغماتِ الذنوب
يُشرْنَ إلى كلّ عضوٍ بما ... يَحُلّ به في الهوى من كُروب

ومثله قوله في الرقص التعبيري[2]:[الطويل]

وراقصةٍ بالسَحرِ في حَرَكاتها ... تقيمُ به وزن الغناءِ على حَدَ
مُنغَمةُ ألفاظُها بترنُّمٍ ... كَسا معبراً من عزّة ذُلة العبدَ
وتحسُبها عمّا تُشيرُ بأنمُلٍ ... إلى ما يلاقي كلُّ عضوٍ من الوجدَ

وربما لَبسِن الملابسَ الطويلةَ ذات الطيّات الكثيرة. ونَثَرنَ العطور الثمينة وقد تكون من المسك ، فعندَ حركتهنَ تفوحُ رائحةٌ زكيةٌ. وفي وصفِ مثلِ هذا المشهدْ الراقص يقول[3]: [الطويل]

ومن راقصاتٍ ساحبات ذيولها ... شواذٍ بمسك في العبير تَنْضَحُ
كما جرّرَت أذيالها في هديلها ... حمائمُ أيكٍ أو طواويسُ تبذخ

ويبدو أن الغناءَ المصحوب بالرقصِ قد شاعَ في عصر الطوائف حيث كانت مجالس الأنس والطَرب تَغصُ بغناءِ الأشعار، التي اشتملت على المدَح ووصف القصورِ والحدائقِ ومجالس الشُرب في الولائمَ بعد أن وُضِعَتْ أصولُهُ وأرقامُهُ

---

(١) ديوان ابن حمد يس : ص٢١.

(٢) المصدر نفسه : ص١٢٣.

(٣) المصدر نفسه : ص١٣.

الموسيقية، ودخلت بعض الألحان من الفرس والرومان[1] واليونان وما زادهُ زرياب في أوتار العود وتراً خامساً إختراعاً منه، وحفظهُ لعشرة آلاف صوت من الأغاني بألحانها.

السـاقية : -

لم يقتص إختيار الجارية الساقية في المجتمعات الأخرى على الصبايا أو ذوات الجمال، ولا على اللّون من بياض وشقرة أو سواد وصفرة فلكلٍّ مَجلسُهُ ونداماه. وقد ورد في أدب النديم (ولا يستحق النديم هذا الأسم حتى يكونَ له جمالُ ومروءةُ، أمّا جمالهُ فنظافةُ ثوبهِ وطيبُ رائحتهِ وفصاحة لسانهِ، وأما مروءته، فكثرةُ حياتهِ في إنبساطٍ إلى جميلٍ ووقارِ مجلسهِ مع طلاقةِ وجههِ في غير سخف) [2]،

أمّا في الأندلس فكنَّ يُصطَفَيْنَ من بين الجواري الصبايا الشابات الموسومات بالجمالِ الخلاّب الفاتناتِ الساحراتِ. ذواتُ القدودِ الممشوقةِ الهيفاءِ والبشرة الصافية البيضاء، مع توافر القابليةِ والتمكن من الخفّةِ والدّلِ والغُنجِ. وغصت مجالسهم بالأنس[3] والطَرب والخمور وكانت تتألف الجارية الساقية بينهم، ومنهنّ من كابدت السهر مع الندماء وجالستهم وسهرت على راحتهم وخدمتهم، ويظهر أنها تربي منذ نعومة أظفارها على ارتياد مجالس الخمرة فتألف السهر إلى ساعة متأخرة، تلك هي الساقية أسيماء الطفلة الصغيرة العجيبة الخلق قامت طول الليل تسقي الندمان فقال فيها إبن شهيد مرتجلاً[4]: [مخلع البسيط]

---

(١) انظر بلاغة العرب في الأندلس : ص٢١ – ٢٢ . سهام الفريح: الجواري والشعر في العصر العباسي الأول : ص٧١ طـ –١٩٨١ . الكويت.

(٢) أبو الفتح منصور بن الحسين الكاتب المعروف بكشاجم : أدب النديم : ص١٢ – ١٢٩٨هـ.

(٣) قلائد العقيان : ص٦ – ٧.

(٤) ديوان ابن شهيد : ص٣٩، تحقيق شارل بلا. وانظر إبراهيم أبو الخشب: تاريخ الأدب العربي في الأندلس: ص٦٩.

أفـــدى أُســـيماءَ مـــن نَـــديمٍ مُـــلازمٍ للكـــؤوس راتـــبْ
قد عَجبُـوا فـي السُّـهادِ منهـا وهـي لعمـري مـن العجائـبْ
قـالوا تجـافى الرُّقـاد عنهـا فقلـتُ : لا ترقُـدُ الكواكـبْ

ولمكانة الجارية الساقية؛ أكثرَ الشعراءُ من وَصفِها وتغزّلُوا بها تغزلاً حسيّاً فجاء وصفهُم لحُمرةِ خدِّها وتورّدِه ، وهَيَفِ قَدِها ورشاقته وفيها يقول[1]: [مجتث]

وأهيـــفٍ قـــام يســـقي والســـكرُ يَعطـــفُ قَـــدّه
وقـــد تـــرنّحَ غُصـــناً واحمـــرت الكـــاسُ ورده
وألهـــب الســـكرُ خَـــدّاً أوري بـــه الوجـــدُ زَنـــده
فكـــاد يشـــربُ نفســـي وكـــدتُ أشـــرب خَـــدّه

وتطالعنا ساقية أُخرى ، نَجدها ساقيةً للقهوةِ وليسَ للخمرةِ ويظَهرُ أنّ القهوى كانت تُدارُ في مجالسِ أُنسهمِ أيضاً. هذه الصبيةُ الصغيرةُ الشـقراء، أرْعبهـا لَمـعُ البرق، لحداثةِ سنِّها. يقولُ المعتمد[2]:[السريع]

ريعـتْ مـن البـرقِ وفـي كفِّهـا بَـرقٌ مـن القهـوةِ لمّـاعْ
يا ليتَ شعريِ وهي شـمسُ الضُـحى كيـفَ مـن الأنـوارِ تَرتـاعْ

وكانت مجالس الأنس مُحفزاً من مُحفزاتِ وصف الساقية والتغزل بها، ويبدو للساقي أثر على النديم. وللمنادمةِ حقٌ، وقد يَطيبُ المُدامِ بطيبِ المدام[3].

وقد تفننت الساقية بمظهرِها ولباسها ومشيتها وطريقة تصفيف شعرها، فنجـد صورة لعذراء شقراء لبست ملابس صبية وعرقبت شعرها ووضعته علـى صـدغها وفيها يقول ابن شهيد[4]:[الرمل]

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ص٣٥٤.
(٢) ديوان المعتمد بن عباد: ص٢١، وانظر الحلة السيراء :جـ٢ ص١٠.
(٣) الراغب الأصفهاني : محاضرات الأدباء: جـ٢ ص٦٩٣ – منشورات دار مكتبـة الحيـاة – ١٩٦١.
(٤) انظرديوان ابن شهيد : ص٢٨. شارل بلا وانظر المصدر نفسه: ص٩٢ تحقيق يعقوب زكي.

وربيـــب قـــامَ فينـــا ســـاقياً كالرَّشا أُرضِـــعَ بـــين الرَّبـــرب
صبيةٌ دون الصَّـــبايا قُصِّصـــت فأتَتْ غيَداءَ في شكلِ الصَّـــبي[1]
فُـــتِّحَ الـــوردُ علـــى صَـــفْحتِها وحَمـــاهُ صُـــدْغُها بـــالعقرب[2]
فَمشـــت نحـــوي وقـــد مُلِّكتُهـــا مِشيةَ العصـــفُورِ نَحـــوَ الثَّعلـــب

ويصور لنا ابن حمد يس صورة حسيّة حيّة لساقيةٍ تَظهرُ يَدَها وكأنها فَم يتكلم قائلاً[3]: [الكامل]

يا حُسْـــنَ ســـاقيةٍ تمُـــدّ أنـــاملاً بعـــروس رَاحٍ فـــي عقُـــد حُبَـــابِ
تُسقيك شـــمسَ ســـلافةٍ عنبيّـــةٍ طلعت علـــى فُلـــكٍ مـــن العُنّـــاب
وكأنمـــا يـــدُها فـــمٌ مـــتكلمٌ بالســـحرِ فيـــهِ مقـــولُ المضـــرابِ

ولا يقتصر السقاةُ على النساء وحدهنَّ، بل كان بعض الغلمان يقومون بهـذه المهمة الماجنة يقول الحكيم[4] أبو الصلت أمية المتوفى (٥٢٩هـ)

مِنْ يَدِ ساقٍ ساقَ نحوي الحتَفا بمقلـــةٍ تغـــري الـــدلاصَ الزَّعفـــا
يدارُ غصـــناً ناعمـــاً وحَقْفـــا يـــريُح نصـــفاً ويمـــيس نُصـــفاً
وصيّرَ الحسنَ عليـــهِ وصـــفاً فمـــــا رآه أحـــــدُ فَعفـــــا

نجد المعتمد بن عباد شرب كأسه في صحة جاريته وداد ربما كانت ساقية في مجالسه ، وقد شكا من جفائها ، فشَرِبَ الكأسَ وتَذكرها قائلاً[5]:[الخفيف]

---

(١) هذا المصرع في المسالك (فأنت عذراء شبه الذهب). انظر هامش الصفحة .
(٢) ديوان ابن شهيد : ص٢٨ -٢٩ جمع شال بلا.
(٣) ديوان ابن حمد يس : ص٢١.
(٤) ديوان الحكيم ابي الصلت أمية: ص١٢٤ ، تحقيق محمد المرزوقـي . طـــ . دار الكتـاب : ١٩٧٤.
(٥) انظر نفح الطيب : جـ٥ م٣ ص٢٣٣. لم أجد الأبيات في الديوان علماً أشار اليها في فهرست الطبعة المعتمدة.

إشرَبْ الكأسَ من وداد ودادكْ وتأنسْ بذكرها في أنفرادكْ
قمرٌ غابَ عن جفونكِ مراً هُ وسكناهُ من سَوادِ فؤادكْ

وكانت الجواري تدير حانات الخمور، في ذلك قالَ ابنُ اللّبانةِ المتوفى (٥٠٧ هـ) [1]:[الكامل]

ولرُبَّ ربةِ حانةٍ نَبهتُها والجوُ لؤلؤ طلّه قد رُضرضا

وتَظهرُ صورةَ الجارية الغلاميّة واضحة عند الشاعر الأسعد(*) بن بلّيطة المتوفى (٤٤٠هـ). فيصورها بملابس الصبايا الغلمان وقد وضعت خالاً أسود من المسك على خدها . وخطت شارباً أخضرَ فوقَ فَمها الصغير. وشعرها الذي أكسبَ مشطَها المصنوع من العنبَر رائحةً عطرةً بعد أن ضَمَخَتْهُ بالطيب[2]:[الطويل]

توَهَّمَ عَطفُ الصُدغِ نوناً بخدِّها فباتَتْ بمسكِ الخالِ تَنْقطُهُ نَقْطا
غُلامَيةٌ جاءت وقد جَعلَ الدُجى لخاتِم فيها فصّيَ غاليةٍ خُطا
غَدتْ تتقعُ المسواكَ في بُردِ ثغرها وقد ضَمَنتْ مسكاً غدائرها المشطا
أرى نكهَةَ المسواك في حُمرة اللّمس وشاربكِ المخضرَّ بالمسكِ قد خُطّا

---

(١) شعر ابن اللبانة : ص٦٠.

* الأسعد بن بلّيطة : هو أبو القاسم الأسعد بن إبراهيم بن بليطة القرطبي كان ثائراً وشاعراً مجيداً تردد بين بلاطات ملوك الطوائف يتكسب بالشعر وهو من شعراء المعتصم بن صمادح. نال جوائز الملوك وتوفى سنة ٤٤٠هـ انظر الذخيرة: م٢ ق١ ص٧٩٠ -٧٩١ طـ. ١٩٧٨ . والخريدة : القسم الخاص بشعراء المغرب والأندلس : ص٦٧٦.

(٢) انظر الخريدة: ص٦٧٦ وانظر عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي: جـ٤ ص٤٩٣ طـ. الأولى – دار الملايين ١٩٨١.
ولقد وردت هذه الأبيات في ملحق ديوان المعتمد بن عباد : ص١٢٠ تحقيق أحمد احمد بدوي ، نقلاً عن إ. ر. نيكل ، ويبدو أنها جاءت سهواً والحقيقة أنها لأسعد كما ورد ذلك لأن نيكل لم يشر إلى قائلها.

رثاء الجواري ونديبهن : -

نجد الأسف والحسرة والألم على فقدهن واضحاً في بعض ما جاء من الشعر في رثائهن منبعثاً من أصحابهن الشعراء ، واسيادهنّ ومحبيهن. وفي رثـاء جـوهرة يقول إبن حمد يس [1]:[المنسرح]

واوحشتد مـن فـراق مؤنسـة يُميتنـي ذكرُهـا ويحييهـا
أذكرهـا والـدموعُ تُسـبقُني كـأنني للاسـى أُجاريهـا

ويلاحظُ على ابن حَزمْ شدة الحُزن وعمقُ العاطفة وغَورها في قَلبـه، لفقـده جاريتهُ نُعْم ، تلك الجارية التي أحبها حبّاً ، ملك عليه شغاف قلبه، وأفاض به سـبيل وجدانه، فَجعتَه بها الأقدارُ فصارت تحتْ التراب، فقامَ سبعةَ أشهر بعدَها لـم يتجـرّد من ثيابه حُزناً عليها. يقول (ولو قُبل فداءُ لفديتها بكلّ ما أملك مـن تالـد وطـارق، وببعض أعضاء جسمي العزيزة علي . مسارعاً طائعاً وما طاب لي عيش بعـدها ولا نسيت ذكرها. ولا أنستُ بسِواها. ولقد عَفّى حُبي لها عن كُل ما قبلهُ وحرّم ما كـانَ بعدَهُ) [2].

والجاريةُ الشقراء نُعْم التي تُوفيت دونَ سن العشرين. تركت أثراً بارزاً فـي نفسية الفقيه إبن حَزْم صاحب فلسفة الحب العذري[3].

وطيفُها زارَ خيالَهُ وقَنَع بمزارِها ، وللشعراء في علّةِ مزارِ الطيـفِ أقاويـلُ بديعةٌ بعيدةٌ المرمى ومنها يقول[4]: [الطويل]

أتى طيفُ نعْمٍ مضجعي بعد هَـدْأةٍ وللّيـل سُـلطانٌ وظِـلٌ مُمَـدَّدُ

---

(١) ديوان ابن حمد يس : ص٥١٧ . ط. دار صادر – ٦٠.

(٢) طوق الحمامة: ص١٥١– ١٥٢. وانظر طه الحاجري : ابن حزم صورة أندلسية : ص٦٦.

(٣) انظر طوق الحمامة : ص١٦٠ . هامش الصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه :ص١٦٠.

وعهدي بها تحت التُراب مقيمـــةٌ وجاءت كما قد كُنتُ من قبلُ أعهـــدُ

ومثلُ قولُهُ [1]: [الوافر]

فروحي، إنْ أنَمْ بـــكِ ذو إنفـــراد من الأعضـــاءِ مُســـتتِرُ وخفـــي
ووصلُ الرُّوح ، ألطفُ فيك وقعاً من الجسمِ المواصلِ ألفَ ضَعْفِ

ونجد المعتمد بن عباد عندما يزوره طيف من يهوى، لا يقنع إلاّ أن يَظفَر في النوم، بما كان يظفر به في اليقظة على الرغم من إبتذال الجواري وكثـــرتهن لديـــه. وفي ذلك يقول[2]:[الكامل]

إنّي رأيتُكِ في المنَامِ ضـــجيعتِي وكأنَّ ســـاعدَكِ الـــوثيرَ وســـادي
وكأنما عانقتني، وشَـــكوتِ مـــا أشكُوهُ من وجدي ، وطولِ سُهادي

ومثله قول ابن اللّبانة الداني في وصفه لطيف خياله، قائلاً[3]:[الطويل]

وما أنسَ لا أنسَ الخيالَ الذى ســـرى سرى البرقُ من داجٍ من اللّيلِ مظلمِ
أتـــى بهَـــديات فمـــا مَـــدَّ راحـــةٌ وأدى رســـــالاتٍ ولـــــم يـــــتكلّمِ
لثمتُ الثَرى حَيثُ استقلت بيَ الخُطى فلافَحَني عـــن ردعِ مســـكٍ مُخـــتمِ

ومن الشعراءِ من وصَف لنا غادَتَهُ التي زارتْهُ في طيفه، صاحبةَ الوجه الذي فاقَ الشمس والقمَر جمالاً، ذاتَ الشَعرِ الأسود الطويـــل والقـــوام الأهيـــفِ الجميـــلِ

---

(١) طوق الحمامة : ص١٦١. استمد الغرب من حياة ابن حزم وحياة الأندلسيين في القرن الخامس الهجري وذلك بترجمة هذه القصص إلى الفرنسية على يد المستشـــرق الهولنـــدي رينهـــارت دوزي (١٨٢٠ -١٨٨٣) في كتابه تاريخ مسلمي اسبانيا. أنظر المصـــدر الســـابق ص١٦٠ الهامش.

(٢) ديوان المعتمد : ص١٩ .ط. أحمد أحمد بدوي.

(٣) شعر ابن اللبانة: ص٩٥- ٩٦.

والخصرِ النحيلِ ، فجاءَ منامُهُ عبارةً عن وصفٍ حسّي لَجمالِ الجسَدِ، قال أبوُ الحسنِ عليُّ بن حمزة الضرير الأندلسي في ميميّتِهِ سنةَ ثلاثٍ وستين وأربعمائة[1]:[السريع]

أهلاً بطيفٍ زارَني في المَنامْ ... من غادةٍ تَفتِنُ كلَّ الأنامْ
بجيدِ جيداءَ وعيني مَهاً ... أُقْصِدُ من لحظها فيَّ السهامْ
ووجهُها الأقمرِ إذ تزدهي ... بهِ على الشمسِ وبدرِ التَّمامْ
وشَعرها الجثلِ[2] الأثيثِ الذي ... يُحكي إذا امتدَّ التفافَ الظلامْ
وورد خدٌ فوقه عقربٌ ... من صُدغِها تمنعُه أن يُرامْ
قامتُها كالغصنِ ممشوقةٌ ... والخصرُ في إرهافه كالزِّمامْ

وكثيراً ما سحرت الجارية الرجال بألفاظها الرخيمة التي ملكت قلوبَهم ونَفثتْ بها على ألبابِهم. يقول ابن حزم[3]:[الطويل]

كأني لم أنسْ بألفاظكِ التي ... على عُقَدِ الألباب هُنَّ نوافثُ
ولم أتحكَّم في الأماني كأنني ... لأفراطِ ما حُكِّمت فيهن عابثُ

لقد ازدحمتْ دارُ المدنيات بالقيانِ كما ازدحمت قصورُ الملوك بهن وبلغت الأعدادُ عند بعضهم أرقاماً خَياليّة لا يُصدّقها العقلُ، ولا يَخلو دارُ الرجلِ الفقير الحال من جاريةٍ واحدةٍ على الأقل. فابتذالُهنّ في مجتمع كالمجتمع الأندلسي وتنوع أعمالهن من جوارٍ للخدمة واللّذة والمتعة وساقيات في المجالس ومغنيات وراقصات، شَكلَّ ظاهرةً متميزة، وتغزلَ بهن الشعراءُ لِما إتصفنَ به من رقةِ طبعٍ وحُسنٍ وظُرفٍ، واستطعَن أن يَثرنَ في نفوس أسيادِهن من الإعجاب والحبِّ ما بدا اثرهُ واضحاً في أشعارهم علاوةً على ما تمتعَن به من ثقافةٍ وتعليمٍ وتهذيبٍ وفنٍ وصَنعةٍ في الموسيقى

---

(١) علي بن الحسين الباخرزي ت ٤٦٧هـ : دمية القصروعصرة أهل العصر جـ٢ ص١٨٨ – ١٨٩ . ط. ١٩٧٢.

(٢) الجثل من الشعر: الكثير الملتف.

(٣) طوق الحمامة: ص١٥٢.

والرقصِ والغناءِ ، فراحَ الشعراءُ يولهون ويلهَون بهنّ ويعبثون ويتغزلـون. وهـذه اللّمحةُ السريعةَ في الأشعار التي قيلتْ في النّسوة اللائي كان لهُنّ كبيرُ الأثـرِ علـى الشعراءْ فَعَرَضوا لنا إنفعالاتِ وخَلَجاتِ نفوسهم التي كانت يقظة في وجدناهم وربمـا كان لهن مثيلات ولكن الرجال الذين أحبوهن لم يُعدّوا من طبقةِ الشـعراءِ فضـاعت أخبارُهُن . وسنتكلمُ في فصلٍ لاحقٍ عن شعر جواري عصر الطوائف.